٢٨

علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم



الداعية المربي

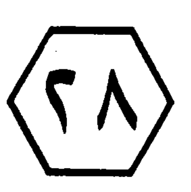
١٣٢٩ - ١٣٩٥هـ / ١٩١٣ - ١٩٧٥م

تأليف

د. عبد المجيد البيانوني



دمشق



علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم



الداعية المربي

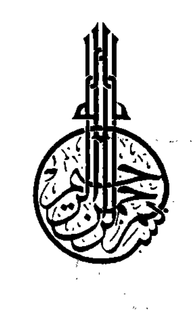
١٣٢٩ - ١٣٩٥هـ / ١٩١٣ - ١٩٧٥م

تأليف

د. عبد المجيد البيانوني



دمشق



الإهداء

إلى روح المربّي الكبير الشيخ عيسى البيانوني رحمه الله . .

وإلى أولاد الشيخ أحمد بنين وبنات . .

وإلى تلامذته وإخوانه ومحبيه . .

وإلى الدعاة والمربين . . وحَمَلة الأقلام المؤلفين . .

وإلى شباب الأمّة الباحثين عن القدوة الحسنة . .

أهدي هذا العمل راجياً من الله حُسنَ المثوبة والجزاء .

* * *

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمدُ لله ربّ العالمين، الذي جعل من حياة السلف منارات هدى للخَلَف، وعِبَراً لأولي الألباب، وأمر بالتأسّي بها والاقتداء، فقال عزّ من قائل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

والصلاةُ والسلامُ على مَنْ كانت سيرته العطرة، وشمائله البهيّة النضرة، منهاجاً للداعين إلى الله، ورياضاً للصالحين، وأسوة للمتقين إلى يوم الدين.

وبعد؛ فما أحوج الأمّة إلى الدعاة الرّبانيين، والأئمّة المهديّين، وإنّ حاجتها إليهم واللهِ لهيَ أشدُّ من الحاجة إلى الطعام والشراب، والكساء والدواء، فضلاً عمّا دون ذلك..

ويتّصل بهذه الحاجة المؤكّدة: الحاجة إلى كتابة سير الأئمة الربانيين، والدعاة المهديين، وجمع أخبارهم، وتسطير مناقبهم، وهذا ما درج عليه العلماء خَلَفاً عن سَلَف، وكان لهذه الأمّة مفخرة تباهي بها سائر الأمم.

وقد كان للأستاذ الفاضل محمد علي دولة المشرف على مطبوعات دار القلم جهد طيّب مشكور في تعريف الجيل المعاصر بعلماء الأمّة ودعاتها، فأصدر سلسلة: (أعلام المسلمين) وقد جمعت حتى الآن أكثر من تسعين عَلَماً من أعلام هذه الأمّة على اختلاف العصور، ولا يزال العطاء فيها مستمرّاً..

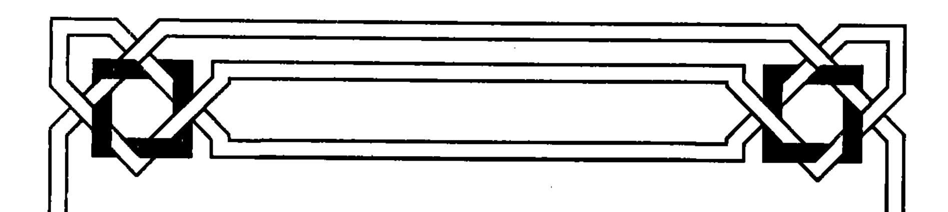
ثم أصدر سلسلة جديدة، تخصّ المعاصرين بعنوان: **(علماء ومفكّرون معاصرون.. لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلّفاتهم)**.

وقد طلب منّي الكتابة على حسب منهج هذه السلسلة عن فضيلة أستاذنا وشيخنا الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني، فاستجبتُ له بعد تردّد، لكثرة المشاغل من جهة، وتهرّباً من المسؤولية من جهة أخرى، ثم ألحَّ عليّ فلم أجد لنفسي مسوّغاً للاعتذار، فاستخرتُ الله تعالى، ثمَّ أقدمتُ على ما طلب منّي وفق المنهج الذي اختاره جزاه الله خيراً. .

فلا يسعني إلاّ أن أشكر الأستاذ المفضال محمد علي دولة على ما تسبَّب لي به من العيش سحابة شهرين من العمر بين يدي مؤلّفات أستاذي وشيخي الداعية المربّي، والانتقال إلى عبق الأجواء الروحية، التي كنّا ننعم في حياته بظلالها. . فاللهمَّ تقبَّل منّي هذا العمل، واقبلني به، واجعله خالصاً لوجهك العظيم، وتغمَّد برحمتك ورضوانك والدينا ومشايخنا والمسلمين أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربّ العالمين.

جدة في ١٠/ ٥/ ١٤٢٣هـ
الموافق ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٢م

وكتبه
د. عبد المجيد البيانوني



الفصل الأول

لمحات من حياته



تمهيد

لقد عاش الشيخ أحمد بين جيلين، ونشأ في بيئتين: بيئة العلماء والمشايخ، التي يمثّلها والده الشيخ عيسى، وشيخه الشيخ محمد أبو النصر رحمهما الله تعالى، ومَنْ كان على شاكلتهم، وبيئة الجيل الجديد، التي تمثّلها الدراسة العصرية في المدارس الحكومية، التي درس فيها، فنظر بعينٍ إلى جيله الذي تربّى في بيئته، وبعين أخرى إلى الجيل الجديد، الذي نشأ في مدارسه، فرأى أنَّ بين الجيلين سدّاً منيعاً، وفجوةً عميقةً، منها ما هو مفتعل مصطنع، ومنها ما هو حقيقيّ له أسبابه المفهومة، ومبرّراته المعقولة، وأنَّ خطاب أولئك المشايخ لايتناسب مع هؤلاء، فلابدّ من تفهُّم المستجدَّات الحادثة، والتطوّرات الاجتماعيّة المختلفة، وتعديل الخطاب الدينيّ والدعويّ وتطويره، بما لا يتعارض مع ثوابت الدين وقيمه ومبادئه، وذلك ليتناسب مع عقليّة الجيل الجديد واهتماماتها، وليكون مؤثّراً فيها. .

وإنَّ كثيراً من الناشئين مثل هذه النشأة لا يحسنون الموازنة بين النظرين، والمواءمة بينهما:

فإمَّا أن يغلبَ عليهم الإعجاب بما رأوا عليه الآباء والأجداد، فيميلوا إلى ما نشؤوا عليه ويعتزُّوا به، ويحاربوا كلَّ ما عداه، ولو كان نافعاً مفيداً، لا يتعارض مع شيء من حقائق دينهم، فلا يعيشون زمانهم، ولا يخدمون دينهم.

وإمَّا أن يفتتنوا بالوافد الجديد، وينظروا باستصغار واحتقار لما كان عليه الآباء والأجداد، فينسلخوا عنه بكلّيّتهم، ويأبوا أن يستبقوا على شيء منه، وهذا ما حدث لكثير من شباب ذلك الجيل، نظراً لما دُبِّرَ له من مكر، وأُحيط به من مخطّطات الاستعمار، وأساليبه ووسائله. .

وكثير من هؤلاء وأولئك كان يعيش صراعاً نفسياً مُرّاً قبل أن ينحاز إلى أحد الفريقين والمعسكرين، ثمّ إذا انحاز إلى أحد الفريقين ناصره بكلّ قوّة وشدّة، على قدر ما عانى قبْل ذلك من صراعٍ نفسيّ واضطراب. .

وربّما نشأت في قلوب بعضهم شكوك وشُبهات، فحمل أحدهم إشكالاته المقْلِقة إلى بعض أولئك المشايخ، يريد الإجابة المقنعة، فإذا وُفّق ذلك المسؤول، وسُدّد في الإجابة فقد انحلّت المشكلة، وزالت الشبهة، وإلاّ فإنَّ الأمرَ في نفوس هؤلاء الناشئين يزداد تعقيداً وإشكالاً. .

وقلَّ في الناس من ينهج المنهج الوسط الذي أشرنا إليه، وقد سلكه الشيخ واختاره، وتبدَّى في شخصيّته التعليمية والاجتماعية والدعوية، كما تبدَّى في منهجه وأسلوبه، ولغة خطابه، ومؤلّفاته وكتبه.

وهذا ما سيتّضح لنا بإذن الله من خلال الوقوف عند كتبِ الشيخ رحمه الله ومؤلّفاته. .

ولقد كان الغزو الفكري والأخلاقي أخطرَ سلاحٍ وجّهه الاستعمار إلى فئات الأمة الإسلامية وأجيالها؛ فأفسد العقول، وسلَبَ الأفئدة، واجتاحَ بسمومه وشبهاته، وشكوكه وضلالاته قواعد العقائد، والأسس والمبادئ، التي كانت معلومة من الدين بالضرورة، فلم تعُد كذلك، وأصبحت تحتاج إلى إعادة بناء وتأصيل جديد، بلغة خطاب، تقنع الجيل الجديد، بل تستهوي فؤادَه، وتؤثّر فيه. . وكانت البيئتان اللتان أشرنا إليهما معزولتيْن عن بعضهما غاية العزل وأشدّه: فما يجري للجيل الجديد من غسلٍ للعقول والقلوب لا يعلم عنه الآباء شيئاً ولا يعرفون، بل هم في وادٍ آخر، يرونَ الإسلام بخيرٍ ما داموا يلتفّون حول مشايخهم، يلتقونهم صباح مساء، ويلتمسون منهم الدعوات والبركات. .

ويعبّر عن هذا الواقع وما يحمله من أخطار ما كتبه الشيخ في سيرته الذاتية إذ يقول: «وحفظني الله تعالى في هذه السنوات الثلاث ـ سنوات دار المعلّمين ـ

من دعوة الإلحاد، التي كان يلقي إلينا سمومها بعضُ الأساتذة، الذين درسوا في فرنسة، وفتنوا فيها عن دينهم.

كما حفظني من الانطلاق في الآثام، التي كان بعض رفاقي يتحدَّثون بها عن أنفسهم، كأنّها مآثر ومفاخر.. بل كان ذلك حافزاً لي في مستقبل قريب أن أظهر بالمظهر الإسلامي، غير مبالٍ بمن يعاديه، وقلت في نفسي: إذا كان أهل الباطل لا يستحيون من باطلهم، فما أجدرني وأنا مسلم، وعلى دينٍ حقّ، أن أظهر بمظهرهِ الكريم، وأعتزّ به وأفخر!.».

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

التعريف بالشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني

● اسمه ونسبته وميلاده:

هو العالم العامل، الداعية القدوة، الشيخ أحمد الصيّاد، الملقَّب عزّ الدين، والمكنَّى بأبي عليّ وأبي الرجاء، ابن الشيخ عيسى بن حسن بن بكري ابن أحمد البيانوني الحلبيّ.

وُلد في مدينة حلب من بلاد الشام عام ١٣٢٩هـ الموافق لعام ١٩١٣م[١]، وفيها نشأ وتلقَّى علمه، وهي ميدان عمله ونشاطه ودعوته إلى أن توفي فيها عام ١٣٩٥هـ، الموافق لعام ١٩٧٥م.

● أسرته وبيئته:

والده هو الإمام العالم العَلَم، الفقيه الأديب، الداعية إلى الله، الورع الزاهد، التقيّ الصالح، الذي اشتهر بشدّة محبّته للنبيّ ﷺ، والحرص على اتِّباعِ سنَّته، الشيخ عيسى بن حسن البيانوني المولود بقرية (بيانون) من قرى حلب، وهي تبعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً شمالي حلب[٢].

قدم بالشيخ عيسى أخوه الأكبر الشيخ حمّادة[٣] من القرية إلى مدينة حلب، ليطلبَ فيها العلم، فطلب العلم ونبغ، واستقرّ فيها مع أسرته، وكان

---

(١) يقول في سيرته الذاتية التي سمَّاها: (مراحل حياتي): «ولدت في اليوم الرابع من شهر ربيع الأوّل سنة تسع وعشرين وثلاثمئة وألف».

(٢) يُنظر ما كتبه أستاذنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة في مقدمة كتاب (فتح المجيب في مدح الحبيب) وهو ديوان شعر عيسى البيانوني المطبوع.

(٣) والشيخ حمّاد أو حمّادة كما هو مشهور، هو جدّ كاتب هذه الرسالة.

يخرج إلى القرية بين الحين والآخر لصلة الرحم والدعوة إلى الله تعالى.

فأسرته ـ رحمه الله ـ أسرة علم ودين، وتقوى واستقامة، ودعوة إلى الله.

وكان شيخ والده وشيخه، العالم العامل، والداعية الرباني الشيخ محمد أبو النصر خلف ابن الشيخ سليم الحمصي، أحد كبار العلماء والدعاة إلى الله في بلاد الشام في العصر الحديث، الذي كانت الدعوة إلى الله تعالى شغله الشاغل، فاهتدى على يديه عشرات الألوف في شماليّ بلاد الشام، وأريافها وباديتها، وتاب إلى الله تعالى بتأثيره ودعوته خلقٌ لا يُحصَون عدّاً.

● **نشأته العلمية والعلوم التي برز فيها:**

نشأ الشيخ أحمد رحمه الله، وشبَّ وترعرع، في بيئة طيّبة صالحة، يحبّ الصالحين، ويألَف مجالسهم، وينتفع بحديثهم وتوجيههم.

وختم الشيخ القرآن الكريم، وعمره خمس سنين، وكانت تلك سنَّةُ عصره، يوجّه الطفل أول ما يوجّه إلى (الكُتَّاب) يتلقّى عنه مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ويتقن تلاوة القرآن الكريم وتجويده، حتى يختمه مع حفظ ما تيسّر منه، ثم يدخل المرحلة الابتدائية[١].

ثم يوجّهه أهله؛ إما إلى المدارس الدينية، وإما إلى المدارس الرسميّة، وكانت تسمّى (الأميرية)، وقد أُنشئت أواخر القرن الثالث عشر الهجري مع مدارس البنات، وأُريدَ لها أن تجدَّد في أسلوب التعليم ومناهجه، وتدخل العلوم العصرية إلى جانب العلوم الدينية والعربية.

فأُدخل رحمه الله تعالى المدرسة الابتدائية، وكانت الدراسة فيها ستّ سنين، ثمّ تخرّج فيها، والتحق بدار المعلمين، وكانت الحياة فيها داخلية، ذات نظام دقيق.

---

(١) وقد سمعت ذلك من الشيخ أحمد رحمه الله.

وكان كثير من الناس يؤثِرون الدراسة في دار المعلمين، لأنها قريبة المنال، خفيفة الأعباء والتكاليف، يسرع الفتى فيها إلى الحياة الوظيفية والاجتماعية.

وقد همَّ والده الشيخ عيسى مرّات عديدة أن يخرجه من المدرسة لينسبه إلى المدرسة (الخسروية)، أو إلى أي مدرسة شرعية أخرى، ولكنّ الشيخ محمد أبا النصر رحمه الله تعالى، كان يثنيه عن ذلك، ويقول له: **«إنّ ولدنا أحمد. . لا خوفَ عليه»**[1].

ونبغ الشيخ أحمد بين أقرانه في جميع المواد الدراسية والنشاطات، كان من المتفوّقين، ثم تخرّج في دار المعلمين، ودخل الحياة العملية معلّماً.

وأما العلوم التي برز فيها: فقد برز الشيخ أحمد رحمه الله في حياته الدراسية في عدّة علوم، كان على رأسها علوم اللغة العربية نحوِها وصرفِها وآدابِها، فكان صاحبَ ذوقٍ لغوي مرهف، بعيد عن الأساليب الدخيلة، المتأثرة باللغات الأجنبية وأساليبها.

سألته مرةً عن سرِّ قوّته اللغوية، وفصاحة تعبيره، وجزالة أسلوبه، وأنا أريدُ أن يدلّني على بعض الكتب القديمة لأعلام الكتّاب والأدباء، فقال لي: **«لقد قرأنا في مرحلة الطلب لهؤلاء كثيراً، واستفدنا من أساليبهم، ولكني لم أرَ أنفع من كثرة التلاوة للقرآن الكريم مع التدبّر لمعانيه، والتأمّل في بديع تركيب جمله وآياته، والتعمّق في فهم أسلوبه، وتعبيره عن شتّى المعاني، باللفظ المعجز، والجملة الموجزة، التي لا يمكن التعبيرُ عما تحتويه من المعاني، إلا بكلام كثير طويل»**.

---

(١) سمعت ذلك من الشيخ أحمد رحمه الله في مناسبات عديدة، والشيخ أحمد هو ولد الشيخ محمد أبي النصر من الرضاعة، كما أنه بمثابة ولده من حيث التربية والتوجيه.

وكـان رحمه الله يحرص على اللغـة الفصحـى دون تكلّـف، ويـوصي باستعمالها في الكلام العادي والمخاطبات، والبعد عن العامية، وبخاصة السوقية منها، التي غزتها الكلمات الأعجمية.

وقد نشّـأ أبناءه وبناتـه على ذلك، وحـارب فيهم أية كلمـة، تسبق إلى ألسنتهم بحكم المخالطة، والتأثّر بكلام الناس.

وقد جمع في كتيّبه الذي أسماه: (أخطاء لغوية شائعة، وتصويباتها) خمس مئة كلمة شائعة وتصويباتها، وبناه على قول: «لا تقل: كذا. . . وقل: كذا»، يعرض الخطأ والصواب.

وكان عندما يتكلّم في القواعد أو الإعراب، يتكلّم عن بديهة حاضرة، وبأسلوب تعليمي جذّاب.

وكان يشحذ همم تلامذته في مجالس القرآن في المسجد بعد الفجر في رمضان المبارك، بأسئلة عن الإعراب ويناقشهم فيها، ويذكر وجوه إعراب بعض الكلمات، وتنوّع المعاني تبعاً لذلك، ويقرر بعض القواعد، مما قطفنا من ورائه فوائد علمية كبيرة.

وكان يجيد اللغة الفرنسية، يتقنها قراءةً وفهماً ومحادثةً، ويحثّ إخوانه على الاهتمام باللغة الأجنبية لحاجة الدعوة إلى الإسلام إليها.

ومما اهتـمَّ بـه من العلـوم علم النفـس التربـوي: فقد كـان عَلَمـاً على شخصيته، معلماً وموجّهاً، وداعياً ومذكّراً، وربّ أسرة مربّياً.

وبعد اتجاهه الوجهة الدينية الدعوية؛ كان له اهتمام بكلّ العلوم الشرعية العمليـة: من التوحيـد والتفسـير، والفقـه والحديث، والسيرة والتراجم، والأخلاق والتصوّف الشرعي، ويمكن أن يلحظ ذلك كل دارس لآثار الشيخ ومؤلّفاته.

على أن الأمر المميّز للشيخ أحمد على كثير من أقرانه، هو القدرة الفائقة

التي آتـاه الله إياها على تمثّل العلم الذي يدرسـه، ونقله للجيل المعاصر من الشباب، وتقريبه لهم بصورة عصرية ملائمة، ويُلحَظُ ذلك بيسر من النظر العابر لآثاره ومؤلّفاته، وقد كان للشيخ مساهمة في إعداد كتب التربية الإسلامية لمراحل دراسية متعدّدة لما امتاز به في هذا الباب.

ـ **وأما مواهبه الفنيّـة**؛ فقد برع بالخط والرسم والأعمال الفنية، وكان ذا ذوقٍ عالٍ فيهما، وذا تقدير لقيمتهما، وتقويم للأعمال الخطية والفنية، ونقدٍ لها.

فأما الرسم والأعمال الفنية، فقد شُـغِلَ عنه بأعبـاء العمل الإسـلامي ومسؤوليات الدعوة.

ـ **وأما الخطّ**، فقد نـال حظّاً أكبر من اهتمامه، وكان هوايـة محببة لـه، وذلك لطبيعته المتصلة بحياة العالم والمعلّم والمؤلّف. ولكنه لم ينصرف إليه انصراف الخطّاطين، ولم يشغله عن مسؤولياته الدعوية، وواجباته الشرعية، وقد كتب بيده بخط الرقعة الطبعة الأولى من كتابه: (**سبيل الهدى والعمل**).

ـ **وأما نشاطاته**، فقد نشأ منذ الصغر على الفتوّة وحبّ الرياضة، فشارك أيام دراسته في الفرق الكشفية، وشارك في مجالات ريـاضية أخرى، وكان يحبّ لعبة كرة القدم أيام دراسته.

وقد حدَّثنا رحمه الله تعالى، أنـه حضر رحلات كشـفية كثيرة، كانـوا يقطعون فيها أكيالاً عديدة على الأقدام، قد تستغرق سحابةَ يومٍ كاملٍ، يحمل كل منهم لوازمه الفردية، وقد استفاد من ذلك في حياته العمليّة، وتركت أثراً عميقاً في نفسه وشخصيته.

وكان سبّاحاً ماهراً، يجيد السباحة، ويحثّ عليها إخوانه، ويشجّعهم على إتقانها، وقد علّم أولاده السباحة حتى مهر بها أكثرهم وأجادوها، وفي رحلاتنا معه كان يجري لنا مسابقات في السباحة، ويشارك فيها.

وكان الاهتمام بالرياضة يحتلّ المكانة العالية في توجيهه لأبنائه وإخوانه،

فكان من أهمّ وصاياه التي يكلّف بها إخوانه: **أن يحرص الأخ على الرياضة اليومية، ولو عشر دقائق على الأقل.**

وكانت الرياضة جزءاً من البرنامج اليومي لرحلات إخوانه السنوية، أو الخروج اليومي الذي تقوم به مجموعات من الإخوة، في أيام الربيع إلى بساتين حلب وضواحيها.

وكان ينظر إلى الرياضة، أنها جزءٌ هامٌّ من بناء الشخصية الإسلامية الكاملة، وكان يعدّها طاعة، يتقرّب بها إلى المولى جلّ جلاله، فكان لا يسمح لأحدٍ من إخوانه أن يهزل وقت الرياضة أو يضحك، لأنها من الأعمال الجدّية التي لا يليق فيها الهزل، وقد أفاده اهتمامه بالرياضة، وممارسته لها، تلك الحيوية والنشاط، والقوّة والفتوّة التي تمتّع بها في حياته.

● مشايخه وصلاته بالعلماء وحبّه للصالحين:

رضع الشيخ أحمد منذ نعومة أظفاره حبّ الصالحين، وكان أبرز شيخين أثراً في حياته، وكان لهما أثر كبير في توجيهه ورعايته: والده الشيخ عيسى البيانوني، وشيخه وشيخ والده الشيخ محمد أبو النصر خلف الحمصيّ رحمهما الله تعالى.

أولاً: التعريف بوالده الشيخ عيسى بن حسن البيانوني رحمه الله:

ولد الشيخ عيسى بن حسن بن بكري بن أحمد البيانوني، في قرية تسمى: (بيانون) تابعة لقضاء إعزاز، على بُعد ثمانية أميال في الشمال الغربي من مدينة حلب، من أبوين صالحين كريمين.

وكانت ولادته سنة ١٢٩٠هـ، ولما بلغ من العمر عشراً، ساقته الأقدار إلى طلب العلم، فنزل إلى حلب، ولازم أخاه العالم الشيخ حمادة البيانوني رحمه الله، وكان أخوه من علماء المدرسة العثمانية والمبرزين فيها، لازم قارئ حلب الحافظ المتقن الشيخ أحمد الشهير بالحجار، حتى حفظ القرآن الكريم غيباً، وأتقن تجويده، وأحسن تلاوته، وتعلّم كتابة الخط من الشيخ بشير

الحياني، وكان خطاطاً ماهراً، ولما تمّ له ذلك التفت إلى دراسة العلوم الدينية، وتلقّيها من فحول العلماء، فقرأ على أخيه الشيخ حمادة البيانوني مبادئ العلوم الدينية بأنواعها، كعلم التوحيد والنحو والصرف، والتصوف والفقه، واستفاد منه كثيراً، وقرأ علم التفسير على العالم العامل الشيخ مصطفى الهلالي الشهير بالدرعزاني، كما قرأ عليه أيضاً علم المنطق، وشيئاً من النحو والإعراب.

وحضر على مدرّس المدرسة العثمانية الشيخ حسين الكردي، الذي كان يوصف بأنه مجتهد في العلوم العقلية، فقرأ عليه علم التفسير والتوحيد، والمنطق والصرف، وعلم النحو وعلوم البلاغة، وباقي علوم الآلة، ولزم حلقة العلامة الكبير الشيخ بشير الغزي رحمه الله تعالى، فقرأ عليه علم الحديث، كما قرأ عليه شرحه للجزرية، كما قرأ عليه علوم الأدب والبلاغة.

وأتمَّ دراسته في علم النحو على العلاّمة الورع الزاهد الشيخ أحمد المكتبي، فقرأ عليه شرح ألفية ابن مالك، وحاشيتها للخضري، كما قرأ عليه حاشية العلاّمة العطار على شرح الأزهرية.

- **وقرأ علم الفقه** أولاً على أخيه الشيخ حمادة، ثم لزم العلامة الشيخ سعيد السنكري، فقرأ عليه حاشية الشيخ إبراهيم الباجوري، ثم قرأ عليه شطراً من حاشية العلامة البجيرمي على شرح المنهج للخطيب في الفقه الشافعي، وقرأ على العالم الفقيه الشيخ أحمد البدوي الجميلي، الذي كان أستاذاً في المدرسة الشعبانية.

- **اجتهاده وذكاؤه، وثناء أساتذته عليه**: كل مَن اجتمع بالشيخ عيسى وسمع كلامه في وعظه وإرشاده، أو نصائحه وخطبه علم يقيناً أنه على جانب عظيم من الذكاء وتوقّد الذهن، ولقد كان يرحمه الله مبرزاً بين أقرانه في الفهم عن الشيوخ، وكانوا يسألون رفاقه أولاً عن المغلق من العبارات، فإذا عجز رفاقه عن الجواب، وجّهوا السؤال إليه، فكان يحلّ المشكل بأحسن جواب. ونال بهذه المزية الفذّة غاية الرضا من شيوخه، وصار موضعَ ثنائهم وإعجابهم، يقول

عنه بعض أقرانه: إنّه لو لم ينصرفْ إلى الاشتغال بالتصوّف لكان من الفقهاء المبرزين الذين يشار إليهم بالبنان، وقال بعضهم: «لو بقي الشيخ عيسى مشتغلاً بالفقه، لكان مرجِّحاً في المذهب الشافعي».

وأخذ الشيخ عيسى عن علماء دمشق، وبخاصة شيخ علمائها المحدّث الشيخ بدر الدين الحسني، وأخذ عنه جهابذة علماء حلب، وفي مقدّمتهم شيخنا العلاّمة المحقّق عبد الفتاح أبو غدة، وحصل له إقبال من الخاص والعام، وكان صحيح المذهب، حسن الصدر، حلو النصائح، كثير التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، من أهل الذكاء واليقظة، والنباهة والمعرفة، والصلابة في الحق، والفضل الواسع، والتواضع الجمّ.

- **وظائفه العلمية**: دخل الشيخ عيسى في مسابقة علمية للتدريس في بلدة (المَعَرّة) فحاز فيها الدرجة الأولى، وبقي فيها ست سنوات، ثم عاد إلى حلب، وتقلّد خطابة جامع المدرسة العثمانية، وعُيِّن مدرساً للأخلاق في المدرسة الخسروية: (الثانوية الشرعية بحلب)، فكان خيرَ أستاذٍ في بثّ الأخلاق الطيبة علماً وعملاً.

ولما زار الشيخ العلامة المحدّث بدر الدين الحسني الدمشقي رحمه الله بلدة حلب، ورأى من الشيخ الإخلاص في الوعظ، والتأثير في القلوب، طلب من مدير أوقاف حلب أن يعيّنه مدرّساً للنساء، فكان لهنّ خير إفادة وأبلغ موعظة.

- **إتقانه التصوف واشتغاله به**: وقد حُبِّبَ إليه التصوّف منذ شدا بالعلم، فانتسب إلى بعض الطرق، وأخذها عن شيوخها من العلماء العاملين الصالحين كالشيخ مصطفى الهلالي الشهير بالدرعزاني، والشيخ محمد خير الله، والشيخ محمد أبو خالد الدمشقي الرشيدي، ثم أخذ الطريقة النقشبندية عن العالم الفاضل الشيخ محمد أبي النصر خلف الحمصي ولزمه حتى توفّي رحمه الله تعالى.

- **تأليفه وآثاره**: ومع اشتغاله بالتدريس والخطابة، والدعوة والإرشاد، فقد ألَّف عدة كتب طبع بعضها، وبعضها لم يزل مخطوطاً. فمن مصنفاته:

١ ـ كنز الهبات في الصلاة على سيد الكائنات ﷺ.

٢ ـ كتاب المنكرات، في مجلدين.

٣ ـ كتاب موادّ العقل السليم في متابعة النبي الكريم ﷺ.

٤ ـ كتاب تحذير الإنسان من آفات القلب واللسان.

٥ ـ أكواب الرحيق في آداب الطريق، وهو ضخم.

٦ ـ الآراب في الآداب، وهو مختصر أكواب الرحيق، ويقع في جزء لطيف.

٧ ـ أربعون حديثاً في المحبة النبوية، وقد شرحها شرحاً لطيفاً.

٨ ـ رسالة أسماها: معرفة العبد ربّه بالذكر والمحبّة.

٩ ـ ثلاثة دواوين في الخطب الجمعيّة:

أ ـ أحدها مضمّنٌ بآيات قرآنية على هيئة التخميس.

ب ـ وثانيها مجموع من الخطب النبوية.

جـ ـ وثالثها مجموع من الأحاديث القدسية.

١٠ ـ ديوان شعر في مدح رسول الله ﷺ.

١١ ـ إعلام الإنسان بأحكام الصيام.

١٢ ـ مجموعة أملاها في المبشرات.

١٣ ـ فتح المجيب في مدح الحبيب، ديوان شعر في المحبة النبوية مرتّب على حروف الهجاء.

١٤ ـ غاية المطلوب، في رؤيا المحب للمحبوب، وكان آخر مؤلَّفاته، وقد تحدَّث فيه بما منَّ اللهُ به عليه من رؤيته النبيَّ ﷺ، والاقتداء بهديه، والاقتباس من نوره.

ـ **وفاته**: حجَّ الشيخ عيسى رحمه الله سبع حجَّات، وبعدما أتمَّ مناسك الحج في حجّته الأخيرة عام ١٣٦٢هـ أصابه (زُحَار)، فأسرع رفاقه باستدعاء الطبيب ففحصه وأعطاه علاجاً، وكانوا حينئذٍ على أُهبة التوجّه إلى المدينة المنوّرة، فركب السيارة مع رفاقه، فأصابهم على الطريق سيول جارفة أخّرت سيرهم ليلتين، احتمل فيها الفقيد رحمه الله مشقة عظيمة، على رغم ما بذله رفاقه الكرام من خدمة له واعتناء به، جزاهم الله خيراً.

ولما وصلوا إلى المدينة المنورة، أخذوه إلى المستشفى، ولم يزل ينحطّ جسمه، وتضعف قواه حتى توفي ليلة الأحد بعد العشاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة عام ١٣٦٢هـ فشيعوا جثمانه، وصلّوا عليه في المسجد النبويّ الشريف، وساروا به في موكب عظيم، حتى وصلوا به البقيع المبارك، فوقف الأستاذ الشيخ محمد الحكيم ـ أحد رفاقه في سفر الحج ـ فأبَّنه وعرَّف الناس قدره، وواروه ترابَه في منتصف المسافة بين ضريح سيدنا إبراهيم ولد النبي ﷺ وقبور الشهداء رضي الله عنهم.

ـ **عمل الشيخ عيسى رحمه الله في المجتمع**: لقد قضى الشيخ عيسى عمراً طويلاً تقلّبت فيه البلاد شتى التقلّبات، وتخلّل ذلك الشيء الكثير من الاضطراب الخاصّ والعامّ، وكانت البلاد في شبه ثورة اجتماعية هائجة، فكان الشيخ عيسى يتنقّل بين المساجد داعياً إلى الله، منادياً بنبذ المنكرات، محبِّباً بالفضائل، وكان أمره بالمعروف يتطوّر أحياناً فيأخذ شكلاً من القوة والحضّ على الجهاد في سبيل الله، فقبل دخول الفرنسيين حلب قام بحركة جهادية مباركة؛ إذ ذهب إلى الأقضية والقرى، وحرَّض المسلمين على الجهاد، وجمع كثيراً من المتطوّعين، الذين قدموا حلب بخيلهم ورجلهم، وقد حمل كل منهم بندقيته متحمّساً يشرق نور الإيمان من وجهه.

ولم يلبث أن بلغه أنَّ المقاومة قد انتهت في دمشق، فتفرّقت الجموع وما تمّ لها شرف الجهاد، ولما استتب الأمر للفرنسيين في البلاد، سعى بعض الوشاة فأبلغوا الجنرال (غورو) بما صنع، فكان جوابه في حنكته السياسية أن قال: «إنَّ هذا الأستاذ يُشكر على عمله، لأنه قام بواجب الدفاع عن وطنه»[1].

وكما كان الأمر بالمعروف يأخذ ذاك الطور من الشدّة والجهاد حيناً، فقد كان ينزع إلى ضرب من السعي الخيري، والاهتمام بفقراء المدينة المنورة جيران رسول الله ﷺ، فقد كان الشيخ عيسى يجمع المال من المسلمين كل عام، ويرسله مع جماعة من أمناء الحج ليوزّع على فقراء المدينة المنوّرة، وقد جعل ذلك ديدنه، حتى إنه قبيل انتقاله إلى جوار ربه أعطى ما معه من أمانات مجبية لهذه الغاية لتوزَّع على الفقراء ولحق بالرفيق الأعلى، كل هذا يضاف إلى تدريسه الأخلاق في المدرسة الخسروية، ودروسه العامة في المساجد[2].

ثانياً: التعريف بالداعية الرباني الشيخ محمد أبو النصر خلف الحمصي ١٢٩٢ـ١٣٦٨هـ:

هو الإمام الشهير، العالم العامل، والداعية الرباني، شيخ العلماء، وأسوة الدعاة الأتقياء، وأحد كبار الدعاة في بلاد الشام ومرشديهم، الذي كانت الدعوة إلى الله تعالى شغله الشاغل، وعمله الدائب، فلم يهدأ عن الدعوة إلى الله في البلدان والأرياف، والبادية والحاضرة، واهتدى على يديه عشرات الألوف، وتاب إلى الله تعالى بتأثيره ودعوته خلق لا يحصون عدّاً، وتحوّلوا من حال إلى حال، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء.

- **نسبه وأسرته:** هو الشيخ محمد أبو النصر بن الشيخ محمد سليم الحمصي بن خلف بن الجنديّ الحسينيّ الشافعيّ، الإمام المرشد العلاَّمة ابن

---

(١) ينظر كلام الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري في مقدّمة (ديوان فتح المجيب في مدح الحبيب) للمترجم له بتصرّف واختصار.
(٢) المرجع السابق باختصار.

المرشد العلاّمة، مربّي الطالبين ومرشد السالكين.

- **ولادته ونشأته**: ولد الشيخ محمد أبو النصر بحمص في رجب سنة ١٢٩٢هـ، واعتنى به والده عناية فائقة فأخذ عنه مبادئ العلوم والطريق من آداب وأذكار، وتلقّى عنه التوحيد، وقرأ عليه حاشية الجمل على الجلالين، وإحياء علوم الدين، وبعد أن تحقق من أهليته للإرشاد، أذن له الإذن التامّ المطلق، وأجازه إجازة عامة. كما قرأ الصحيحين، وقرأ الفقه الشافعي على الشيخ عبد الغني السعدي، والشيخ محمد المحمود الأتاسي، والشيخ عبد القادر الشيخة، وحضر على الشيخ بدر الدين الحسنيّ البيباني[1]، في تفسير الإمام النيسابوري، وممن أجازه واستفاد منه الشيخ سليم المسوتي، والشيخ شرف الحق الهندي، والمجاهد أحمد شريف السنوسي.

- **صِلاته بعلماء الحرمين الشريفين**: وقد تشرَّف بزيارة الأراضي المقدّسة، وأداء النسكين في سنة ١٣٢٩هـ، ثم في سنة ١٣٦٣هـ، وفي هذه الأخيرة تزاحم عليه الناس كثيراً وأقبلوا عليه، وانتسب إليه كثرة لا يحصون، منهم المحدّث عمر حمدان المحرسي، والسيد علوي المالكي، والشيخ حسن مشاط، والسيد أبو بكر الحبشي، والشيخ محمد ياسين الفاداني وغيرهم.

- **أما تلاميذه بالشام**؛ فهم كثرة من الأعلام، منهم: الولي الصالح المرشد الشيخ عيسى البيانوني، والشيخ محمد الحجّار، والشيخ المجاهد محمد الحامد، والسيد عبد الباسط خلف ابن صاحب الترجمة، والشيخ عبد القادر القصّاب الدير عطاني. كما سلك عند الشيخ محمد أبي النصر كبار

---

(١) يقول الباحث: إنَّ الشيخ بدر الدين الحسني البيبانيّ هو من أقران الشيخ محمد أبي النصر، فحضوره عليه إن ثبت إنما هو على منهج سلف هذه الأمّة في أخذ الأقران عن بعضهم واعترافهم بفضل كلّ ذي فضل، وقد حدَّثني بعض المعاصرين للشيخين: أنَّ الشيخ بدر الدين الحسني أخذ الطريق أيضاً على الشيخ محمد أبي النصر.

علماء حمص؛ منهم: الشيخ حسني السباعي والد الشيخ الدكتور مصطفى السباعي.

ـ تقواه واستقامته: كان رحمه الله تعالى مستقيماً على الطاعة، صاحب كرامات كثيرة، بلغت مبلغ التواتر، وكان كثير الأوراد والأذكار، لا يترك قيام الليل بحال، كثير القراءة للقرآن، وخاصة قبيل وفاته. يقول تلميذه الشيخ محمد الحامد، رحمه الله تعالى: «إن الفجر ما كان يطلع على الشيخ محمد أبي النصر، حتى يذكر الله ثلاثين ألف مرة».

ـ أخلاقه وشمائله: كان رحمه الله تعالى صاحب دعوة مستجابة، لين الجانب، سخيّ اليد، سهل الطبع، رحيماً بالناس، ومن رحمته أنه ما دعا على أحد من الذين كانوا يحقدون عليه ويؤذونه، وكان إذا بلغه عن أحد منهم ما يقوله فيه لا يغضب، ولا يتأثر، بل يقول لمن حوله: «**ادعوا له، ادعوا له**»، ولا يزيد على ذلك. وكان رحمه الله تعالى متواضعاً، رحيماً بخلق الله تعالى جميعاً، ليّن القلب، طويل الصمت، طيّب النفس، غزير الدمعة.

وكان يتفقّد مريديه، ويزورهم في بيوتهم، ويقبل دعوتهم، ويسافر من أجل رؤيتهم، ويتعرّف على أحوالهم، ويسأل عنهم في كل مناسبة. ومن تواضعه أنه كان يقدّم الطعام لمريديه، ويطعمهم بيديه، ويأكل فضل طعامهم، ويحمل العجين بنفسه إلى الفرن. وكان يحترم العلماء، ويجلّهم ويكرمهم، ويقدّمهم في صدر مجلسه ويقول: هؤلاء عظّمهم الله سبحانه فعلينا تعظيمهم.

ـ شغفه بالدعوة وتأثيره في الناس: وكان رحمه الله تعالى طويل الصمت، قليل الكلام، وإذا تكلّم تكلّم بكلمات قليلة، يعظ بها الحاضرين، فترقّ القلوب، وتذرف العيون، ويعظم تأثيرها في الناس، فكم تاب على يديه في تلك المجالس خلق لا يحصون عدّاً؟! وكم عاد بعض الشانئين من خلّص تلامذته ومريديه من مجلس واحد حضره، فأصبح يجلّه ويقتفي أثره!.

ويقول عنه تلميذه الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى في مقابلة معه في

مجلة (حضارة الإسلام): «**ولئن كان مني نفع للأمّة، فهو في صحيفة شيخي مسجّل**».

- **أدبه مع الشرع، ودقّة اتباعه**: وأما أدبه مع الشرع، ودقّة اتّباعه، فقد سمعنا من الشيخ أحمد رحمه الله تعالى مراراً، وفي مناسبات عديدة أنّ الشيخ أبا النصر رحمه الله **كان لا يرتضي شيئاً من شطح الصوفية، أو خروجهم عن ظاهر الشرع** وآدابه، ولا يقرّ أحداً من أتباعه خاصّة على قراءة شيء من الكتب التي فيها مثل ذلك، وكان كثيراً ما يدعو أتباع الطرق الذين ورثوا المشيخة عن آبائهم بغير علم، إلى طلب العلم الشرعي برفق، ويحرص على إبعادهم عن كلّ ما فيه مزلّة أقدام، أو مضلّة أفهام.

ولم أرَ أحداً من العلماء في عصره، اجتمعت عليه قلوب العامة والخاصة، والقريبين والبعيدين، وعمّ نفعه وخيره، وفضله وتأثيره، كما اجتمع ذلك للشيخ محمد أبي النصر خلف الحمصي، في شماليّ بلاد الشام، والشيخ بدر الدين الحسنيّ في جنوبها رحمهما الله تعالى، وأجزل مثوبتهما.

ولقد فتح الله تعالى على الشيخ محمد أبي النصر من الكرامات الحسيّة والمعنوية ما روي بالتواتر عمّن عاصره ورآه؛ ولا شكّ أنّ أجلّها تلك الكرامات المعنوية، التي تعني ما كان عليه رحمه الله من عظيم الاستقامة والتمسّك بالسنّة، والتأدّب بآداب الشرع، وتشمل التأثير العجيب الذي جعله الله لحاله وكلامه في قلوب الناس ونفوسهم.

- **يقول الشيخ عبد الحميد طهماز** في كتابه (العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد): «**واستقامة الشيخ أبي النصر، أجمع عليها كل من رآه وعرفه، رحمه الله تعالى**»[1].

- **وفاته**: توفي رحمه الله تعالى بحمص وقت السحر من ليلة الجمعة

---

(١) انظر كتاب (العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد) للشيخ عبد الحميد طهماز، ص٢٠١.

الخامس من رمضان سنة ١٣٦٨هـ رحمه الله وأثابه رضاه، وقد انكشف قبره بعد سنة من وفاته، ففاحت رائحة ذكية من قبره الشريف، ورؤي بحالته التي دُفن بها، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء[١].

ثالثاً: صلته بالعلماء والدعاة في عصره، وحبّه للصالحين:

كان الشيخ أحمد ولعاً بحبّ الصالحين وزيارتهم، ومجالستهم والانتفاع بأقوالهم وأحوالهم ومواقفهم.

ومن أهل العلم والفضل، الذين كانت له صلة وثيقة بهم، أقران والده أو أقرانه من علماء سورية، أو علماء العالم الإسلامي.

فقد كان للشيخ صلة وثيقة بعلماء دمشق وصالحيها، الذين كانوا على معرفة بوالده رحمه الله، يزورهم ويزورونه، منهم:

١ ـ **السيد محمد المكي بن محمّد بن جعفر الكتّاني**، المولود بفاس عام ١٣١٢هـ، والمتوفى في دمشق عام ١٣٩٣هـ[٢].

٢ ـ **الشيخ إبراهيم الغلاييني**، المولود في دمشق عام ١٣٠٠هـ، والمتوفى عام ١٣٧٧هـ[٣].

٣ ـ **الشيخ ملاّ رمضان البوطي**، والد الدكتور محمد سعيد رمضان، المولود عام ١٨٨٨م، والمتوفى عام ١٤١٠هـ الموافق ١٩٩٠م[٤].

---

(١) من كتاب (تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع)، أو (إمتاع أولي النظر ببعض أعيان القرن الرابع عشر) للشيخ محمد ياسين الفاداني، ص٣٤ ـ ٣٥ باختصار وتصرّف.

(٢) كما في تاريخ علماء دمشق، للحافظ وأباظة: ٢/ ٩٠٩، وقد سبقت ترجمته في الباب الأول.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٦٨٧.

(٤) ينظر كتاب (هذا والدي) لولده الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

٤ ـ **الشيخ محمد أبو الخير بن محمد الميداني**، المولود في دمشق عام ١٢٩٣هـ، والمتوفى عام ١٣٨٠هـ[(١)]، وغيرهم كثير رحمهم الله تعالى وأجزل مثوبتهم.

ومن المشايخ الذين كان يزورهم في مكة والمدينة، عندما يحجّ كل عام، ويزور المدينة المنوّرة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام:

١ ـ **الشيخ محمد العربي بن التبّاني السطيفي المغربي ثم المكي**، المولود في الجزائر عام ١٣١٥هـ، والمتوفى بمكة المكرّمة عام ١٣٩٠هـ.

٢ ـ **الشيخ السيد علوي بن عباس المالكي**، المولود بمكة عام ١٣١٧هـ، والمتوفى فيها عام ١٣٩١هـ.

٣ ـ **الشيخ حسن بن محمد المشّاط المالكي المكي**، المولود في مكة عام ١٣١٧هـ، والمتوفى فيها عام ١٣٩٩هـ.

٤ ـ **الشيخ إبراهيم بن سعد الله الفضليّ الختنيّ ثم المدنيّ**، المولود في تركستان عام ١٣١٤هـ، والمتوفى في المدينة المنوّرة عام ١٣٨٩هـ.

٥ ـ **الشيخ السيّد محمد أمين الكتبي**[(٢)]. وغير هؤلاء كثير من علماء الحرمين الشريفين ومجاوريهما، من أهل الصلاح والتقوى، وكثير منهم من أهل ودّ أبيه الشيخ عيسى رحمه الله.

والطبقة الثانية هم العلماء والمشايخ الذين كان يلتقيهم للتشاور فيما يعرض للأمّة من مشكلات، على مستوى سورية، أو على مستوى مدينة حلب،

---

(١) تاريخ علماء دمشق: ٢/ ٧٢٠.

(٢) انظر تراجم هؤلاء الأعلام في كتاب (تشنيف الأسماع، بشيوخ الإجازة والسماع»، جمع الشيخ أبي سليمان محمود سعيد بن محمد ممدوح، وأول ما اتّصل سمع الباحث باسم هؤلاء العلماء عن طريق حديث الشيخ أحمد عنهم في مجالسه الخاصة، وثنائه عليهم.

كالشيخ حسن حبنّكة الميداني، والشيخ عبد الكريم الرفاعي، والشيخ محمد الحامد، والشيخ عبد الوهاب دبس وزيت، والشيخ محمد سعيد البرهاني، ومن حلب: الشيخ محمّد النبهان، والشيخ عبد الله خير الله، والشيخ محمد السلقينيّ، والشيخ محمد الشامي. وغيرهم رحمهم الله تعالى، وأجزل مثوبتهم.

- وكان للشيخ علاقة متميّزة مع بعض المشايخ، منهم من كان يعدّه مرجعاً علمياً له، كالشيخ عبد الله خير الله رحمه الله، وكان فقيهاً من كبار فقهاء الحنفية، وعلى درجة من التقوى والاستقامة، وكذلك شيخنا وأستاذنا الشيخ محمد بن العلاّمة الشيخ إبراهيم السلقيني، رحمه الله، وهو كذلك من كبار فقهاء الحنفية وكان على تقوى واستقامة مشهورة، وتواضع وخشية لله سبحانه.

- ومنهم أيضاً شيخ القرّاء في مدينة حلب، شيخنا وأستاذنا الشيخ نجيب الخيّاطة الفقيه الحنفيّ، العابد الزاهد، والفرضيّ اللامع، والفقيه الحنفي الشيخ مصطفى مزراب رحمهما الله.

- ومن العلماء مَنْ كان بينه وبين الشيخ أخوّة خاصة، قد تعاهدا فيها على التناصح، ودعوة كل واحد منهما لأخيه بظهر الغيب، أذكر منهم العالم العامل، العابد الزاهد، الفقيه الواعظ، الشيخ عبد الله ابن العلاّمة الشيخ محمّد نجيب سراج الدين رحمه الله، وهو كذلك من كبار فقهاء الحنفية، كان يزور الشيخ في بعض المناسبات، فيقول للشيخ: «**نحن على العهد يا شيخ أحمد. ! فيقول له الشيخ كذلك: ونحن على العهد**»، وقد فسَّر لنا ذلك الشيخ أحمد بالأخوّة الخاصة، والتعاهد على دعاء كلّ منهما لأخيه بظهر الغيب.

- ومن المشايخ الذين كان بينهم وبين الشيخ أخوّة خاصة أيضاً: فضيلة أستاذنا العلاّمة، التقيّ الصالح، والفقيه المحدّث، الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة رحمه الله.

وقد حدَّثنا الشيخ رحمه الله أنّهما قرأا معاً عدّة كتب من أمّهات كتب

التفسير والحديث والفقه والسيرة، وقد رأينا تعليقاتهما على بعض تلك الكتب، وما وشّوا به حواشيهما من نفائس الفوائد، وغرر التحقيقات والتصحيحات العلمية الدقيقة.

● رحلاته وأسفاره:

لقد كانت الرحلة الحبيبة إلى قلب الشيخ كل عام هي رحلة الحجّ والعمرة، كان يراها استجماماً لروحه، وغذاءً لقلبه، ومغنماً لا يعدله شيء من مغانم الدنيا وبهارجها، يقول في بعض قصائده:

أرضَ الحجازِ فدتْكِ نفسي إنَّني	إذ ما ذكرتِ تحرّكتْ أشجاني
لمّا وطئتُ ثرى الحجازِ تعلَّقتْ	روحي به ماذا هناك عَرَاني. ؟
فإذا نزحتُ بكيتُ مِنْ ألمِ النوى	متمادياً، وجفا الكرى أجفاني
إنِّي أُكابِدُ في الفؤادِ صبابةً	يفنى الزمانُ وما هوايَ بفاني
يا كعبةً ولهي بها هدَّ القُوى	والبعدُ عن جنباتها أضناني
فمتى أُراني طائفاً متمتّعاً	متعلِّقاً بالسَّتْرِ والأركانِ؟[1]

وكان يسمع لوماً وعتباً من بعض الناس، لما يرون من شدّة تعلّق قلبه بهذه الرحلة المباركة، فيقول: **«وهل هناك أقلّ من ذلك؟ في السنة كلّها نذهب مرّة واحدة؟! إذا كان الإنسان مريضاً يذهب للتداوي لا أحد يلومه أو يعتب عليه، وأنا أذهب متداوياً»**.

وكانت هذه السفرة المباركة، التي يحرص عليها كلّ الحرص، سبيلاً للقائه بالعلماء والدعاة إلى الله تعالى، الذين يحضرون موسم الحجّ من شتى أرجاء العالم الإسلامي، فيكون الحوار معهم، والتعرّف على أوضاع المسلمين في العالم.

وقد سمعنا منه الكثير عن لقاءاته في تلك الأسفار، وعن مشاهداته، وما

---

(١) انظر: مجموعة العبادات، للشيخ أحمد رحمه الله، ص٢٧٨ ـ ٢٨٤.

جرى معه من مواقف في التذكير للناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا السفر المبارك في حقيقته يغني عن أسفار، ويسدّ مسدّ التنقّل في البلاد وكثرة الترحال.

- **وقد كان الشيخ مولعاً بفطرته بالسياحة**، وحبّ الخروج عن صخب المدينة، والخلوة المؤنسة بالله تعالى تفكّراً وذكراً، وتفرّغاً للعلم، وتربية للأسرة، واعتناءً بها، فكان يخرجُ إلى جبل الأربعين في الصيف[١]، فيقضي أكثر أشهر الصيف مع أسرته، وينزل كلّ أسبوع إلى (حلب) لخطبة الجمعة، وقضاء بعض المصالح، فحظيت بذلك أسرته من تربيته وعنايته الشيء الكثير، ولكنّه عندما فتحت عليه الدعوة أبوابها، وعظمت مسؤولياته الدعوية في رعاية الشباب، والإشراف على برامجهم العلمية والتربوية، انقطع عن هذا المصيف، وشغل بمخيّمات الشباب التربوية، التي كان يقيمها سنوياً، ويشرف عليها بنفسه.

● مرضه ووصيته ووفاته، وجنازته ودفنه:

إنَّ كلَّ مَن كان يعرف الشيخ عن كثب من إخوانه ومحبّيه، ويرى ما كان يتمتع به من حيوية ونشاط وهمّة وفتوّة، يتصوَّر أنه يعيش عمراً مديداً، وأنَّ حظ الأمة في مثله مذخور وافر، ولكنّ الأعمار المقدَّرة لا تقف دونها صحّة أو فتوّة، أو شباب وقوّة.

وفي لقاء من اللقاءات مع الشيخ بعد الفجر، في أواخر جمادى الأولى من عام ١٣٩٥هـ، بدت على وجه الشيخ مظاهر الوهن، فشكى ما يحسّ من آلام منذ أيام، فاختصرنا لقاءنا، ثم التقيناه بعد ذلك، فحدَّثنا أنه زار بعض الأطباء الذين يثق بهم، وحدَّثهم بشكواه، فوصفوا له بعض العلاجات والمسكّنات، ثم ازدادت شكوى الشيخ، حتى أقعدته آلامه عن القيام بالخطابة والتدريس واللقاءات مع إخوانه، وتوقّف كذلك عن النشاطات العامة التي كان يقوم بها،

---

(١) وهو مصيف قريب من مدينة (حلب).

ووكّل بالخطابة والتدريس بعض إخوانه، ثم اشتدّ به المرض، فنقل إلى عمّان، وأشرف الدكتور قنديل شاكر - وهو من خيرة الأطباء المختصين - على علاج الشيخ، واعتنى به غاية الاعتناء، ثمّ أخبر أولاده أن مرضه هو السرطان في الدم، ونقيّ العظام، وعندما استكمل التحاليل، ولاحظ سير الدواء، نصحهم بالعودة به إلى (حلب)، فلا حيلة للطب وقتئذٍ في علاج هذا المرض، كما أكّد عليهم أن يزيدوا من العناية بالشيخ: **(لأنه يعاني في مرضه من آلام مبرّحة، لو علم بها عدوه لأشفق عليه، ورقّ لحاله)**.

وضرب الشيخ في مرضه مثلاً رائعاً في الصبر والجَلَد، وتحمُّل الآلام الشديدة، والبعد عن الشكوى احتساباً لله تعالى، ثم إشفاقاً على أهله وأولاده، وإخوانه ومحبيه.

وكان كلّ من يعوده يشهد آثار الآلام المبرحة على وجهه، وفي وعكات جسده، الذي يرزح تحت وطأة المرض ويئنّ، ولكنّك لا تسمع منه إلا كلمات الرضا عن الله تعالى، والثناء عليه سبحانه.

وكان يُطمئِن إخوانه ومحبيه، عندما يسألوه عن حاله، فيجيبهم بقوله: «**سنطيب إن شاء الله**»، وكأنه كان يورّي بذلك عن انتقاله من هذه الدار إلى الدار الآخرة: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

وكان مع شدة مرضه، لا يقرّ أمامه أية مخالفة شرعية، فكان يشيرُ إشارةً مفهومةً، لإنكارِ ما يراه مخالفاً للسنة؛ فإذا رأى بعضَ مَنْ حوله، يشرب بشماله، يشير إليه أن يشرب بيمينه، وإذا أراد بعض أهله أن يلبسه ثوباً، وقدم له الكم الشمال امتنع عن تقديم يده، ولم يقدم إلا يمينه، مما يدلّ على حرصه على السنة، وتمسّكه بها رحمه الله حتى في أشدّ حالات مرضه.

ثم كتب الشيخ وصيته الثانية وختمها، وكلّف من حضر من أولاده أن تبلّغ لولده الشيخ محمد أبي النصر، ولا تفتح إلا بعد وفاته رحمه الله[1].

---

(١) وسنعرض في الفصل الثاني من هذه الدراسة بإذن الله هذه الوصية، ونماذج=

ومع بداية شهر ذي الحجة من عام ١٣٩٥هـ، بدت حالة الشيخ الصحية توحي بقرب المنيّة، فضعف الجسم يزداد، والآلام تتضاعف، والقوة على الحركة لم تبقَ منها إلا ذبالة، ولكن السمع والبصر، والعقل والفؤاد، كل ذلك كان بقوته وسلامته.

وجاء يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة من عام ١٣٩٥هـ، وصلّى الشيخ صلاة الفجر في فراشه، ثم اضطجع ونام قليلاً، ثم استيقظ ضحًى وجلس، ثم جاءته حالة غريبة، فوقف أهله وأولاده الحاضرون مذهولين، إذ انبعثت من داخل جوفه كلمة: «الله»، بصوت قوي مسموع، وكان صوته مختفياً مدة مرضه، لا تسمع منه إلا همساً خفيفاً، فما زال يكرر هذه الكلمة العظيمة الجليلة، بمثل هذا الصوت، ويتحرك بها صدره بقوة، أكثر من نصف ساعة، ثم انقطع صوته فجأة، وسكنت أطرافه، وفاضت روحه إلى بارئها.

فسارع أحد أولاده إلى استدعاء الطبيب، فعلم الطبيب من أوّل نظرة، أنَّ الروح فاضت إلى بارئها، فأقبل على أولاده يواسيهم ويعزّيهم، ويخفّف من مصابهم، وطار الخبر، وبلغ إخوان الشيخ وأحبابَه، فكان وقع المصيبة عظيماً.

وازدحم المحبّون في جامع أبي ذر، صباح يوم السبت، تبدو على وجوههم لوعة الحزن والأسى، لقد كانوا يشعرون أن فقد آبائهم وأمهاتهم أخفّ وأهون من هذا الرزء الفادح، والخطب الأجلّ.. وغصّ المسجد بالوافدين، وسُجّي الشيخ بعد تغسيله في مجلس المكتبة: (الليوان)[1]، ودخل إخوانه

= أخرى من وصاياه رحمه الله.

(١) وهو مجلس كبير له في النفس ذكريات عبقة، إذ طالما شهد لقاءات الشيخ بإخوانه، وطالما عقدت فيه مجالس العلماء، الذين كانوا يجتمعون بين الحين والآخر مع الشيخ رحمه الله تعالى، ليتدارسوا أوضاع الأمة، والمشكلات الاجتماعية الطارئة، ويصدروا عن رأي واحد، وهو المجلس الذي شهد الإحياءات في مختلف المناسبات.

ومحبّوه، ليلقوا عليه نظرة الوداع قبل الصلاة عليه ومواراته في الثرى.

وكُشف عن وجهه، فوالله لم أرَ ميتاً قبل ذلك اليوم، يأنس به الحيّ، كما رأيت الشيخ رحمه الله، كان كأنه يبتسم ابتسامته المعهودة، التي لم تكن لتفارق وجهه ومحيّاه.

ثم دخلت بنات الشيخ ومحارمه يودعنه، وتجلّت تربية الشيخ الإيمانية لأهله وبناته، إذ لم تصدر منهن أية مخالفة، أو تجاوز لحدود الشرع، لقد اعتصمن بالصبر، واحتسبن الأجر، ولم تتكلم إحداهنّ إلاّ بما يرضي الله تعالى.

ثم حُملت الجنازة قبيل العصر إلى جامع (بان قوسا)، وازدحم المسجد بالمشيّعين على سعته، وسعة فنائه الخارجيّ، وتوافد العلماء والمشايخ من مدينة حلب وسواها من المحافظات.

ثم حُملت الجنازة على الأكتاف إلى مقبرة الأعرابيّ، فكانت كلّما سارت خطوة انضم إليها بضع مئات من الناس، حتى أصبح المشيّعون كتلة متراصة من الناس، أوّلها في مقبرة الأعرابي، ونهايتها في جامع (بان قوسا)، الذي يبعد عن المقبرة حوالي ثلاثة أكيال.

ثم دُفن الشيخ رحمه الله تعالى، فأحسسنا أنّ قلوبنا دُفنت معه، واحتبست الحسرة والزفرات بين الضلوع: فـ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وداعاً أيتها النفس المطمئنة! ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

اللهمّ! لا تحرمنا بفضلك أجره، ولا تفتنّا برحمتك بعده، واغفر لنا وله.

● أولاده وأبرز تلامذته:

ـ **أما أولاده**: فقد وُهب الشيخ أحمد من الأولاد أربعة عشر ولداً، بقسمة متساوية بين الذكور والإناث، توفّي منهم ذكر وأنثى وهم صغار، ثم رزق أنثى بُعيد وفاته من زوجته الثانية، وقد بشّر زوجه بها، وسمّاها: (هبة الرحمن)،

وهو في مرض وفاته، فكان مجموع أولاده الذين توفّي عنهم ثلاثة عشر.

وقد اعتنى الشيخ بتربية أولاده عناية كبيرةً؛ فحرص على توجيه الذكور إلى طلب العلم الشرعيّ، ليكونوا علماء دعاة إلى دين الله، فنسبهم إلى الثانوية الشرعية بعد المرحلة الابتدائية وكان يسمع من بعض الناس عتباً في ذلك: «لماذا كل الأولاد تريد أن تخرّجهم مشايخ؟!» فكان يجيب بقوله: «**إنَّ كلَّ صاحبِ مهنةٍ شريفةٍ، رفيعةِ القدر بين الناس، يعتزُّ بمهنته، ويريد أن يكونَ أولادُه مثلَه، فالطبيبُ يريد لأولاده أن يكونوا أطبّاء، والمهندس يريد لأولاده أن يكونوا مهندسين، فلماذا لا يريدُ طالبُ العلم لأولاده أن يكونوا مثله؟! وإذا لم يكن أولاد المشايخ مشايخ، فمَن يتوجَّه إلى طلب العلم الشرعي؟! ومَن أحقّ بذلك منهم؟! ثمّ ما أحوج الأمة إلى طلاَّب العلم، الدعاة إلى دين الله تعالى على بصيرة، ونحن نرى العلم الشرعيّ يقلّ بين الناس، والجهل يفشو يوماً بعد يوم!**»

● **وأما بناته**: فقد صرف الشيخ جزءاً كبيراً من وقته لرعاية بناته وتعليمهنّ، فنالت ابنته الكبرى من ذلك قدراً كبيراً من عنايته، حتى أصبحت داعية للنساء، وواعظة مؤثّرة، فكانت تنوب عن والدتها في إقامة الدرس الأسبوعيّ للنساء، وقد اهتدى على يديها بفضل الله تعالى كثيرات، والتزمن الحجاب الشرعيّ، وحافظن على فرائضهنّ وواجباتهنّ.

وحرص رحمه الله على اختيار الأزواج الصالحين لهنّ، وكان يؤثر طالب العلم على من سواه، فزوّج أكثرهنّ لطلاّب علم، لا يملكون شيئاً من متاع الدنيا، فأحيا بذلك سيرة السلف الصالح، وقدَّم النموذج العمليّ من نفسه، ليكون للمتّقين إماماً.

● **وأما أبرز تلاميذ الشيخ رحمه الله**: فمثل هذا الأمر يعسر فيه الإحاطة والاستقصاء، لأن الذين تأثّروا بالشيخ في مختلف مراحل عمله التعليميّ والدينيّ والدعويّ، ويعدّون أنفسهم من تلامذته لا يحصيهم عدّ، ولا تجمعهم ذاكرة، وبخاصّة في مرحلة عمل الشيخ في الثانوية الشرعية، التي هي مورد طلاب العلام ومنبتهم، ومعقل العلماء وحصنهم، وحسبُ الشيخ فضلاً وذكراً

أنه كان يمثّل مدرسة دعويّة تربوية أحيت كثيراً من المفاهيم الإسلامية التي كانت غائبة عن فكر الناس وواقعهم، وأصّلت كثيراً من الحقائق الإيمانية والدعوية التي حجبتها سحب الغفلة والنسيان.

● مكانة الشيخ أحمد بين العلماء:

وتتجلّى لنا مكانة الشيخ أحمد رحمه الله بين إخوانه من العلماء في عدّة جوانب، أهمّها:

١ ـ مشاركته في لقاءات العلماء، على مستوى مدينة حلب، وعلى مستوى سورية، فيما يعرض من أمور تقتضي ذلك، وكان إيجابيّاً في ذلك مسارعاً.

٢ ـ نشاطه في رأب الصدع وجمع الكلمة، والدعوة إلى عقد اجتماعات العلماء، وقد كان الإيوان في جامع أبي ذر موئلاً لهم، يلتقون فيه في كلّ مناسبة، ولهم فيه ذكريات لا تُنسى.

٣ ـ ثناء علماء عصره عليه، وإشادتهم بتقواه وصلاحه، وحكمته في الدعوة وتأثيره، وسنذكر طرفاً من ذلك فيما يأتي بعون الله.

ـ ثناء الناس عليه، وشهادتهم فيه؛ ورثاؤهم له: ما أكثر ما سمعنا من مدح المادحين للشيخ من ذوي الفضل والعلم، والتقى والصلاح.

وإنَّ من عاجل بشرى المؤمن في هذه الحياة الدنيا، أن تنطلق ألسنة الخلق بالثناء عليه، وأن يوضع له القبول في قلوب عباد الله الصالحين، مما يبشّره بمحبة الله له، وقبوله عنده، كما جاء ذلك في الحديث الصحيح.

يقول رحمه الله فيما كتب من سيرته الذاتية «**شهادات**:

١ ـ دعاني والدي رحمه الله تعالى مرّة، وسألني أن أفرّج عنه كرباً، فاستجبتُ سريعاً، فأمسك طرف ساعده الأيسر بين سبّابة اليد اليمنى وإبهامها، وقال: «**يا أحمد! ذرّات جسمي راضية عنك**».

٢ ـ وحدَّثني الشيخ محمود سليمان القدسيّ رحمه الله تعالى، وكان عظيم المحبّة للوالد رحمه الله تعالى، فقال: (كنتُ خارجاً مع والدك من باب السلام، في المسجد النبويّ الشريف، فقال لي: «**ولدي أحمد فاقني بمراتب**»).

٣ ـ وكنتُ مرّةً في حمص، مع رجل من حلب، فجلسنا مع الشيخ رحمه الله تعالى، في صحن زاويته، فمرَّ على البعد طفل من أحفاده، وكأنه رآه متكشّفاً، فصاح به زاجراً، ثمّ قال: «**واللهِ ما أحدٌ اليومَ حفظَ دينَه، مثل الشيخ أحمد**».

٤ ـ وكنّا مرّة عند الشيخ في حمص، فذهب بنا إلى زيارة رجل من أهل الفضل، ولمّا استقرّ بنا المجلس، قال الشيخ رحمه الله تعالى للرجل: «هؤلاء من حلب، يعتقدون بأبي النصر، وكلّ واحد منهم يعدل خمسين رجلاً مثل أبي النصر»، وهذه شهادات كريمة، أرجو خيرها في ديني ودنياي وآخرتي، إن شاء الله تعالى»[1].

٥ ـ **ومن الشهادات**: شهادة والده رحمه الله به، كما جاء في كتابه: (فتح المجيب في مدح الحبيب)[2]: « . . . وبعدها بأيام ـ أي: بعد رؤيا رأى المؤلّف فيها السيد أحمد الصياد الرفاعي، وكان واسطة في إدخاله على النبيّ ﷺ ـ ولد لي مولود، فسمَّيته أحمد، ولقّبته بالصياد، وعزّ الدين، وكنّيته بـ(أبي عليّ)، **وهو الآن في سنّ الثلاثين من عمره، عالم عامل، موفق، كثير الرؤيا للنبي ﷺ، والحمد لله على ذلك**».

٦ ـ وحدّثني الشيخ رحمه الله تعالى في معرض ردّه على بعض مَنْ ينتقصه: إن والده الشيخ عيسى رحمه الله، تكلّم في مجلس من مجالسه العامّة، وتعرّض لذكر تمسّك ولده الشيخ أحمد بالسنّة، فأثنى عليه خيراً، وقال بالحرف

---

(١) انظر ما جاء في كتاب الشيخ: (مراحل حياتي بقلمي).
(٢) ص١٩٣.

الواحد: «**ولدي أحمد أفضل منّي**»[1].

٧ ـ **ومن الشـهادات: شـهادة صديقـه الحفيّ الوفيّ**، الشاعر الكبير، والمفكّر الأديب، **الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري**؛ يقول رحمه الله[2]، وهو يتحدّث عن فضائل الشيخ عيسى رحمه الله ومآثره: «وهناك أثر اجتماعي هام، خلّفه الشيخ عيسى رحمه الله، وعنصر حي، ذهب وهو مسرور بأنه لا يزال حياً، **ذلك نجله الكريم النجيب، الذي لا يشك ذو نظر أنه سيفوق أباه في علمه وعمله إن شاء الله**، فقد هذّبه فأحسنَ تهذيبه، وثقّفه وعلّمه، فأشرقت بدايته.. ولا عجب، فقد قـال ابن عطاء الله رحمـه الله: «إذا أشـرقتِ البدايـاتُ أشـرقتِ النهاياتُ».. وإني لأذكر أن دار الأرقم التي كثر ما سمعتم عن الحلقة الخاصة التي انبثقت عنها؛ كان من أول أركانها الأخ الأستاذ أحمد، نجل الشيخ عيسى رحمه الله».

٨ ـ **ومن الشهادات: شهادة فضيلة أستاذنا الدكتور، الشيخ نور الدين عتر** كما جـاءت في كلمة الوفاء التي أدلى بها بعد وفاة الشيخ رحمه الله في جامع أبي ذر، فكان مما قال:

«...إن مصاب الناس اليوم، وفـاجعتهم فادحـة، حيـث فقدوا إماماً وقدوة، كان يحمل منهجاً، يمثّل التمسّك بالحقّ والحرص على الحقّ مهما كانت الظروف، حتى مع أحبّ الناس إليه، لقد كان أستاذنا الجليل رحمه الله تعالى إنساناً مربّياً، قلّ أمثاله في هذا الزمان، كانت التربيـة النبويّـة هدفـه ومقصده، وكان يسلك في هذا تخطيطاً جميلاً، وبنّاءً، وتربوياً.

وعندما شرُفت المدرسة الشرعيّة الخسرويّة (الثانوية الشرعية بحلب) بإدارته رحمه الله بعث النشاط الخامد، وحرّك الطاقات الشابّة التي كانت ميتة مهجورة، فإذا به يثير في هؤلاء الطلاب الصغار دوافع الحماس والنشاط،

---

(١) وانظر أيضاً ما جاء في كتاب الشيخ: (مراحل حياتي بقلمي).

(٢) كما جاءت في مقدمات كتاب: (فتح المجيب في مدح الحبيب)، ص١٦ ـ ١٧.

فواحد منهم يبادر يكتب مقالاً إسلامياً، وآخر يُعدّ خطبة، وهذا يُعدُّ كلمة، وذلك يدبّج قصيدة، وكل هؤلاء يرون الرعاية والتشجيع، ويرون التحميس والتحفيز. . . »[1].

٩ ـ ومن الشهادات: أبيات لفضيلة أستاذنا العلاّمة الشيخ مصطفى أحمد الزرقا رحمه الله تعالى في الثناء على الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني بعد عودته من الحجّ:

ليهنِكَ أيّها الأستاذُ حَجٌّ ... كسبتَ به رِضا الرّبِّ الكريمِ
قَضيتَ بما سَعيتَ أجلّ فَرضٍ ... وأُبتَ اليومَ بالأجرِ العظيمِ
تُبادِرُ في شَبابِكَ وَاجباتٍ ... وذا مِنهاجُ كلِّ فتًى حَكيمِ
وأفضلُ نعمةٍ تُرجى شَبابٌ ... يكونُ على صِراطٍ مُستقيمِ
وَهَلْ لِلنَّاشِئينَ صَلاحُ سَيرٍ ... بِغَيرِ سُلوكِ أُستاذٍ قَويمِ
إذا قَادتْهُمُ الأفعالُ سَارُوا ... مَسيرَ البَدْرِ في قلبِ الغُيومِ
ضَربتَ بطاعةِ المولى مِثالاً ... لنا وعُرفتَ بالدِّينِ السَّليمِ
يُطابِقُ فِعْلُكَ الأقوالَ فينا ... وتَقوى اللهِ نِبراسُ العَليمِ
وتَقوى اللهِ عِصمةُ كُلِّ سَارٍ ... ومِفتاحُ النَّجاحِ المُستديمِ
مآبُكَ عِيدُنا فَالبِشْرُ فينا ... كَبِشرِ النَّبتِ بالغيثِ العَميمِ
عَواطفُ أحمد صِيغتْ عُقُوداً ... لأحمدَ خيرِ أستاذٍ كَريمِ[2]

١٠ ـ ومما سمعت من شهادة بعض طلاب الشيخ رحمه الله تعالى، شهادة

---

(١) نقلت هذه الكلمات باختصار من الشريط المسجّل في حفل أقيم في جامع أبي ذر، بعد وفاة الشيخ رحمه الله تعالى.

(٢) هذه الأبيات نظمها فضيلة أستاذنا العلاّمة الشيخ مصطفى أحمد الزرقا رحمه الله تعالى، ووصلت للكاتب بخطّ ناظمها، وقد كتب في ذيلها: «نظمتها لابن أخي أحمد في ٥ محرم ١٣٦٢هـ، الموافق ١١ كانون الثاني ١٩٤٣م، لينشدها في المدرسة على أثر عودة أستاذنا فضيلة الشيخ أحمد البيانونيّ من الحجّ».

الشيخ الدكتور أبي حمزة، حسين قاسم ـ حفظه الله ـ فقد سمعته أكثر من مرّة يقول: «إنَّ فضل الشيخ أحمد علينا لا يمكن أن ننساه أبداً، وإن ما نلنا من خيرٍ في حياتنا يعود بعد فضل الله تعالى إليه رحمه الله، لقد حدب علينا وأحاطنا برعايته وعنايته، ووضع أقدامنا على طريق محبّة العلم الشرعي، والحرص عليه، وكنا قد قدمنا من الريف، فشعرنا بالضياع في جوّ المدينة وصخبها، ومغرياتها ومفاسدها، وتياراتها المتعدّدة، وكدنا أن ننزلق لولا لطف الله تعالى بنا، وما هيّأ لنا من رعاية الشيخ أحمد رحمه الله وأجزل مثوبته»[1].

١١ ـ ومما سمعت من شهادة أستاذنا طاهر خير الله رحمه الله تعالى:

«ولقد كان الشيخ أحمد رحمه الله خير عونٍ لإصلاحِ جوانبِ الخلل والفساد الذي كان ضارب الأطناب في الثانوية الشرعية، وكان عمله معي في الإدارة ميدان اختبار دقيق لشخصيّته الإدارية، وحنكته وذكائه، وحكمته وبُعد نظره، وبالأخصّ كان ميداناً لاختبار قدرته على قيادة الفئات المتنافرة، والاتجاهات المختلفة، وكان نجاحُه في ذلك منقطع النظير، وفوق ما يتصور الإنسان، أو يطمح.. والسرّ في ذلك ما كان يتمتّع به الشيخ أحمد من إخلاص في عمله، وتجرّد عن حظوظ نفسه، وهمّة عالية في ضبط الأمور ومتابعتها، وأنا أشهد أني ما لحظتُ عليه يوماً من الأيام اندفاعاً لغرض شخصيّ، أو حظّ نفسي، أو تذكير بأمر ليس من مرضاة الله تعالى، لقد كان الشيخ قويّاً أميناً في تحمّل المسؤولية والنهوض بأعبائها.

لقد عرف الطلاب عنه الحزم والعزم في تطبيق النظام ومتابعته، فأحبوا الشيخ أحمد من قلوبهم، واستجابوا لشدّته، وتطبّعوا بالنظام الذي أراد لهم أن يلتزموا به، لأنهم أدركوا من صميم قلوبهم، أنه يغار عليهم، ويسعى

---

(١) وقد سمعت منه هذه الكلمات عندما عدناه في مستشفى الملك خالد بجدّة، ومرّة أخرى في بيته بمكّة المكرّمة بصحبة بعض أهل العلم بتاريخ ١٦/٤/١٤١٥هـ.

لمصلحتهم، كما يغار الوالد على أولاده»[1].

١٢ ـ شهادة الأستاذ الفاضل أحمد كرزون حفظه الله ورعاه:

«كان الشيخ أحمد البيانوني رحمه الله يتّصف بالتواضع، فكان يختلط بالناس، ويأتي إليهم في أسواقهم ومتاجرهم، ويشتري حاجاته بنفسه، يمشي وحده دون مرافقين له، ودون أن يستعين بأولاده الشباب، أو أحد محبّيه وتلامذته، فيسلّم على الناس، ويرحّب بهم ببشاشة، ويذكّرهم ويعظهم، ويسأل عن أوضاعهم ويعالج مشكلاتهم».

«درَّس عندي في الثانوية العلميّة التي كنتُ صاحبها ومديرها، فكان بحقّ مدرّساً ناجحاً في أسلوبه وضبطه، ومحبّة الطلاب له، وحرصهم على حضور دروسه، وكان يبذل قصارى جهده في عمليّة التدريس، ويجمع معها الإرشاد والتوجيه بما يأتي من شواهد ونصوص يقرّرها على الطلاّب، وبما يوزّع على الطلاب من كتب هادفة من مكتبة الثانويّة لتلخيصها كواجب للتعبير، مما كان له الأثر الكبير في حُسن توجيههم ورعايتهم».

«وقد أكرمني الله بصحبة الشيخ في سفر الحجّ، وكانت معه زوجته وابنته، فكنتُ معجباً بالأدب الإسلاميّ الرفيع، وخلق الحياء الفاضل الذي تميّزت به أهله، إذ لم نسمع منهنّ صوتاً أو كلمة خلال هذه الرحلة المباركة بطولها، وكنَّ يلتزمن بحجابهنّ المتميّز الساتر لجميع أطراف البدن، حتى خلال فترات الاستراحة للصلاة أو الطعام، مما يعطي المثل الرائع عن العلماء والدعاة عما ينبغي أن يكونوا من التربية الأسريّة السليمة، والتطبيق الأمثل لآداب شرعنا الأكمل... **وخلال تدريسه لنا لمناسك الحجّ أشار إلينا بلطف ولباقة، وبأسلوبه الفريد في الوعظ والتذكير أن نصطحب معنا هديّة مناسبة، يُسرُّ بها من**

---

(١) باختصار من مقابلة خاصّة مع الشيخ طاهر خير الله رحمه الله في بيته في المدينة المنورة، قبل وفاته بسنتين.

نقوم بزيارته كما هي العادة، وخير هديّة نصطحبها معنا عند زيارة الحبيب ﷺ أن نطلق لحانا لنكسب رضا الله ورسوله ﷺ، وتكون محبّتنا في القلب والقالب. . .»[1].

١٣ ـ شهادة الأستاذ المرشد الكبير الشيخ محمد بن أحمد الهاشميّ (١٢٩٨ ـ ١٣٨١هـ، الموافق ١٨٨٠ ـ ١٩٦١م) بالشيخ أحمد رحمهما الله تعالى، وثناؤه عليه[2]:

وهي مما سمعته من الشيخ أحمد، فقد حدّثني رحمه الله أنه بعد وفاة الشيخ محمد أبي النصر ابن الشيخ محمد سليم خلف، رحمهما الله تعالى أحسّ باليتم بعده، وكان فقده عليه أشدّ من فقد الوالد، فبحث عن شيخ يلازمه، وينتفع بصحبته، وكان الشيخ قد سمع بالشيخ محمد الهاشمي رحمه الله فقصده في دمشق، وحضر مجلساً من مجالسه، ثم تقدّم إليه وسلّم عليه وعرّفه أنه من حلب، وأنه من تلاميذ الشيخ محمد أبي النصر رحمه الله، يطلب دلالته على شيخ يلازمه، وينتفع بصحبته بعد وفاة شيخه، فقال له الشيخ محمد الهاشمي رحمه الله: «**أدلّك على ولد الشيخ عيسى رحمه الله، فقد سمعنا عن صلاحه وتقواه. . .**»، فابتسم الشيخ، وقال له: «**لقد دللتني على ضعيف**»، وفهم منه الشيخ محمد الهاشمي رحمه الله أنه ولد الشيخ عيسى، فقال له: «أنت ولد الشيخ عيسى رحمه الله؟» وعانقه ودعا له بخير.

فألحَّ عليه الشيخ رحمه الله فقال له: «**أنت فيك البركة والخير، فالزم ما أنت عليه**».

---

(١) باختصار يسير من شهادة خاصّة، تكرّم بكتابتها الأستاذ الفاضل بطلب من الباحث، فجزاه الله خيراً.

(٢) انظر ترجمته رحمه الله في كتاب: (تاريخ علماء دمشق)، للحافظ وأباظة: ٢/ ٧٤٧.

وكان الشيخ أحمد رحمه الله يعلّق على هذه الحادثة بقوله: «والله لو أن **الشيخ محمد الهاشمي رحمه الله يومها دلّني على شيخ لذهبت إليه ولزمته**».

١٤ ـ شهادة الأستاذ الجليل، والحافظ الفقيه الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت (١٣١١ ـ ١٣٨٩هـ، الموافق ١٨٩٢ ـ ١٩٦٩م) **بالشيخ أحمد رحمهما الله تعالى وثناؤه عليه**[١]:

فقد حدَّثني الشيخ أسعد صاغرجي وهو من طلاّب العلم في دمشق ممن تتلمذوا على فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت رحمه الله وأخذوا عنه الفقه، أن الشيخ كان كثيراً ما يذكر لهم الشيخ أحمد رحمه الله، ويقول لهم: «**إن هذا الشيخ أسمّيه شيخ الصدق**»، ويثني لهم على صدق الشيخ وتقواه.

١٥ ـ ومما قيل في رثائه من الشعر، ما قاله الأستاذ ضياء الدين الصابوني في لقاء في جامع أبي ذر، بعد وفاة الشيخ رحمه الله، وهو ممن عرف الشيخ في حلّه وترحاله، وصحبه في سفره وحضره، وعرف عنه الكثير، وأحبّه وتأثّر به، وكان يحضر مجالسه، فينشد فيها أشعاره، فيسرّ بها الشيخ، فقد رثاه بقصيدة أكثر من ثلاثين بيتاً، ومما جاء فيها[٢]:

طأطئ الرأسَ خاشعاً لجهادِهِ	فهوَ رمزٌ للدينِ من أوتادِهِ
كمْ أحبَّ الشبابَ حبّاً كريماً	ورعاهم، بحبّه وفؤادِهِ
وهو يمتازُ بالتواضُعِ والحلْمِ	يضحّي للدينِ في إسعادِهِ
فعلى ثغرِهِ ابتسامةُ بِشْرٍ	ويفيضُ الحنانُ من أبرادِهِ
يتولّى غراسَها بيديهِ	ليرى جَنْيَها بيومِ حصادِهِ
هو خطبٌ على البلادِ جليلٌ	هدَّ رُكنَ الدينِ من أطوادِهِ
يُنْزَعُ العلمُ بانتزاعِ رجالٍ	حملوهُ قد صحَّ في إسنادِهِ

---

(١) انظر ترجمته في المرجع السابق: ٢/ ٨٢٩.

(٢) وقد نقلت من الشريط المسجَّل في تلك المناسبة.

ـ **وأما ما رؤي به من رؤى صالحة، وما رؤي له من بشارات، فهي أكثر من** أن تحصى وتحصر، سـواء أكان ذلـك في حياتـه، أم في مرض وفاته، أم بعد وفـاته، وقد سـجّل في خاتمـة كتاب والده: (فتح المجيب في مدح الحبيب) جملـةً من الـرؤى الصالحـة التي رآهـا أو رئيت لـه، وكان يحدِّثنـا في بعض المناسبات بمثيلاتها تنشيطاً للهمم، وتثبيتاً على طريق الحقّ والهدى.

ـ ومن أجمل الرؤى التي رؤي بها بعد وفاتـه رحمـه الله، رؤيا فضيلـة أستاذنا الشيخ محمد العوّامة حفظه الله، يقول: «رأيت الشيخ أحمد رحمه الله بكامل هيئته وملبسه ونشاطه، قد نزل من جهة بيته متّجهاً نحو باب الحديد، وكاد يصل سور الباب، فسلّمت عليه، فرحَّب بي كعادته في حياته فسألته ـ وأنا أعلم أنه قد توفّي ـ: ما حالكم يا سيدي؟ فقال بغبطة وسرور هذه الكلمات الثلاث بحروفها وترتيبها: **أعطاني، وأكرمني، ومتّعني بالنظر إليه**»[1]، رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته.

* * *

(١) من شهادة خاصة تكرَّم بها فضيلة أستاذنا محمّد العوّامة حفظه الله بطلب من الباحث.

المبحث الثاني

نشاطاته أو حياته العَمَليَّة
وميادينها التعليمية والدعوية والاجتماعية

هيّأ اللهُ للشيخ أحمد رحمه الله في التعليم ميداناً رحباً، فعمل في بيئات متعددة، ومجالات متنوعة، فعُيِّن في الريف مدة ثماني سنوات، ثم عمل في المدينة مدة تقاربها في إدارة الثانوية الشرعية بحلب، ثم انتدب إلى العمل في المعهد العربي الإسلامي - وهو من المدارس الأهلية الخاصة - ثم قضى متفرّقات حياته التعليمية بين عدة إعداديات وثانويات في حلب إلى أن طلب الإحالة على التقاعد عام ١٩٦٨م، حرصاً منه على التفرّغ لشؤون الدعوة، ورعاية إخوانه وتوجيههم.

ولئن كان سببَ تنقلاته من مدرسة إلى أخرى كيدُ بعض أعداء الإسلام له أحياناً فقد كان فيها نفعٌ كبير، وخيرٌ عميم، ورُبَّ ضارّةٍ نافعة، والمؤمن كالغيث حيثما وقع نفع.

كما أنَّ الشيخ رحمه الله لم يقتصر عمله على مجال واحد من مجالات التعليم، وهو التعلم المدرسي الذي تأهّل له بحكم دراسته، وإنما عمل في ميدان اجتماعي أرحب وأطلق، يتّصل فيه بفئات المجتمع كلها، ويلتقيها ويخاطبها، ألا وهو التعليم الديني في ميدان الخطابة والإمامة.

ثم دخلت حياته رحمه الله في طور جديد، عندما دخل مرحلة: العمل الدعوي والتربية الدعوية، فانطلق في تأسيس الجماعة، على المنهج الذي آمن به، وعاش حياته داعياً إليه.

١ ـ نشاطه التعليميّ:

تخرَّج الشيخ رحمه الله في دار المعلمين عام ١٩٣١م، وكان النظام يفرض أن يخدم المعلّم الجديد في الريف سنتين قبل أن يحدّد موقع عمله في مدينته، فقضى في الريف ثماني سنوات كاملة، متنقّلاً من مدرسة إلى أخرى، وكان الشيخ يعد هذه المدّة المديدة من نِعَمِ الله عليه، إذ هيّأ له هذه العزلة عن المدينة وجوّها، ليوجّه قلبه إلى ما أراد به من الخير، وليتيح له مرحلة التكوين العلمي الشرعي[1].

ثم انتقل بعد ثماني سنوات من العمل في الريف، إلى التدريس في مدينة حلب، ولمع نجمه مدرّساً ناجحاً، فنقل من ملاك التعليم الابتدائي إلى التعليم الثانوي، فعمل في عدة إعداديات وثانويات، وكان تأثيره واضحاً في نفوس طلابه كما كانت حظوته عالية لدى مدراء المدارس التي عمل فيها، تسند إليه المهمات الإدارية التي تحتاج إلى الكفاية والخبرة، ويرجع إليه الإداريون في المشورة، وحلّ المشكلات.

وكانت شخصيته المحببة تفرض احترامه وتقديره حتى في قلوب مخالفيه، وبعد عودة الشيخ من الريف بثلاث سنوات أي في عام ١٣٦٣هـ الموافق ١٩٤٣م توفي والده الشيخ عيسى، فعظم مصاب الشيخ به فاتّجه بهمّته إلى الشيخ محمد أبي النصر، وحرص على ملازمته والانتفاع بصحبته إلى أن توفي الشيخ محمد أبو النصر عام ١٣٦٨هـ الموافق ١٩٤٨م.

ـ وفي مجال التعليم المدرسي: شارك الشيخ في وضع مناهج التربية الإسلامية وتأليفها، لعدة مستويات في المرحلة الابتدائية، مع بعض الأساتذة، وقد امتازت تلك المؤلَّفات بالوضوح واعتماد الأسلوب التربوي المعاصر، الذي يقرّب المادة العلمية من الطلاَّب ويحبّبها.

---

(١) كما في رسالته: (مراحل حياتي بقلمي).

- ثم في أول السنة الدراسية لعام ١٩٦٥م أو ١٩٦٦م جرت محاولة لردّه إلى التعليم الابتدائي كيداً من بعض أعداء الإسلام، فأعلن رفضه لذلك، وتوجَّه إلى بيته، فلزمه قرابة عشرين يوماً، ونمى المدير إلى مسؤوليه موقف الشيخ، وبقي الأمر بينهم بين أخذ ورد، وإقدام وإحجام حتى تراجعوا عن قرارهم، ونُقل الشيخ إلى إعدادية أخرى، وكان موقفه من مواقف عزّة العلماء التي لا تُنسى.

- ثم إن من أهم الميادين التي عمل فيها في مجال التعليم المدرسيّ؛ العمل في إدارة الثانوية الشرعية، والعمل في المعهد العربي الإسلامي مدرساً للغة العربية، وكان ذلك ما بين سنة ١٩٥١ ـ ١٩٦٤م، كان منها في الثانوية الشرعية ثمانية أعوام.

ولأهميّة عمله في هذين المجالين، سنفرد الحديث عنهما فيما يلي:

أولاً: عمله في إدارة الثانوية الشرعية بحلب وإصلاحاته من سنة ١٩٥١ إلى ١٩٥٨م:

وكانت تسمّى آنذاك: (الكلية الشرعية)، ولها ماضٍ عريق في تخريج العلماء الدعاة، وفيها يدرّس كبار العلماء والمشايخ، وكانت تسمّى: (أزهر سورية).

وكان عمل الشيخ في الثانوية الشرعية بمسعى من مديرها آنذاك الشيخ طاهر خير الله رحمه الله، وكانت تربطه بالشيخ صداقة وثيقة، فتكلَّم مع مدير الأوقاف، فطلب من وزارة المعارف انتداب الشيخ إلى العمل فيها فتمَّ ذلك[١]، وعُيِّن ناظراً للمدرسة، والناظر كالوكيل في اصطلاحنا اليوم.

حدَّثني أستاذنا الشيخ طاهر خير الله في بيته في المدينة المنورة[٢]، عن أثر الشيخ أحمد رحمه الله في إصلاح الثانوية الشرعية، فأنا أثبتُ هنا خلاصة

---

(١) وقد سمعت ذلك من الشيخ طاهر خير الله رحمه الله.

(٢) قبل وفاته رحمه الله تعالى بسنتين، وكانت وفاته في منتصف عام ١٤٠٩هـ تقريباً.

ما كتبه عنه، يقول رحمه الله: «كانت الثانوية الشرعية قبل أن يعمل فيها أخونا الشيخ أحمد رحمه الله، مسرحاً للاضطرابات والفوضى، والتسيّب والإهمال، وغياب المسؤولية الأمينة الواعية.. لقد عاش أكثر الطلاب فيها، وهم طلاب العلم الشرعي، وحملة أمانة العلم والدعوة في واقع مغلق محدود، وجهل تامّ بما وراء المدرسة وما يعيشُه الناس في المجتمع.

وكانت الحصص الدراسيّة لا تتصف بالنظام المدرسي السليم والانضباط الإداريّ المقبول، مما يعطي صورةً غيرَ حسنةٍ عن المدرسة وأساتذتها وطلابها، وبخاصّة إذا ما قورنت بمدارس وزارة المعارف آنذاك.. وكانت علاقة الطلاب بالإدارة بالغة السوء، يرون الإدارة حاكماً مستبدّاً، يسعى لشرّهم والإضرار بهم، لا لتحقيق مصالحهم، والإحسان إليهم، فكانت المدرسة تشهد بين الحين والآخر إساءات من الطلاب لبعض المسؤولين، تصل إلى الضرب والجرح والإهانة.

ولقد كان الشيخ أحمد رحمه الله خير عونٍ لإصلاحِ هذه الجوانب كلّها، وكان عمله في الإدارة ميدان اختبار دقيق لشخصيّته الإدارية، وحنكته وذكائه، وحكمته وبُعد نظره، ولقد كان نجاحُه في ذلك كلّه منقطع النظير، وفوق ما يتصوّر أي إنسان أو يطمح.

والسرّ في هذا النجاح ـ والكلام كله للشيخ طاهر رحمه الله تعالى ـ ما كان يتمتّع به الشيخ أحمد من إخلاص في عمله، وتجرّد عن حظوظ نفسه، وهمّة عالية في ضبط الأمور ومتابعتها، **وأنا أشهد أني ما لحظت عليه يوماً من الأيام ذرّة من غرضٍ شخصيّ، أو حظّ نفسيّ، أو تذكير بأمر ليس من مرضاة الله تعالى، لقد كان الشيخ قويّـاً أميناً في تحمّل المسؤولية والنهوض بأعبائها.**

لقد عرف الطلاب عنه الحزم والعزم في تطبيق النظام ومتابعته، فأحبوا الشيخ أحمد من قلوبهم، واستجابوا لشدّته، وتطبّعوا بالنظام الذي أراد لهم أن يلتزموا به، حتى أدركوا من صميم قلوبهم، أنه يغار عليهم، كما يغار الوالد على أولاده، ويحدب عليهم...».

وعلاجاً لما رأى الشيخ أحمد من جهل الطلاب بالمجتمع المحيط بهم، فقد اقترح الشيخ طاهر أن ينظّموا رحلات تربوية للطلاّب يتحقّق من ورائها عدّة أهداف، يقول الشيخ طاهر:

«فوافق اقتراحه رغبة في نفسي، فنظَّمنا رحلتين كبيرتين: الأولى: إلى حمّامات الحمّة، والثانية: في السنة التالية إلى بيت المقدس، لزيارة المسجد الأقصى، وآتت كلتا الرحلتين ثمراتها التربوية الطيبة في نفوس الطلاب، ووثّقت علاقتهم بالإدارة، وأدّت إلى حسن تجاوبهم معها.

ومن آثار عمل الشيخ في الثانوية الشرعية سعيه لإدخال المختبر إليها، وقد لقي في ذلك معارضة لا يُستهان بها، ولكنه صبر وعالج الأمر بالحكمة، حتى تمّ له ما يريد.

وقد مارس تدريس اللغة العربية، أثناء عمله في الإدارة، فكان خير مدرّس لطلابه.

ومما امتاز به عمله رحمه الله؛ دقّة رقابته الأخلاقية على الطلاب، ورعايته لهم، ومعالجة تقصير المقصّر منهم بأحسن أسلوب، وأنجح علاج، وكل ذلك لم يكن بحكم عمله الإداري المجرّد، بل من منطلق التوجيه الدعوي، والإعداد التربوي المناسب، ليكونوا أمناء على هذا الدين، وحملة لمشعل العلم والدعوة.

وقد وصل الشيخ بضبطه لطلاب المدرسة وتطبيعهم على الطاعة والنظام، أنه كان يقف وقت الصلاة في ساحة المدرسة ناظراً إلى حركة الطلاب، فلا ترى أحداً منهم إلا وهو يسرع إلى المسجد عند الأذان، ولا يكاد يتخلّف طالب عن إدراك تكبيرة الإحرام مع الإمام.

وكان كذلك يقف صباحاً عند ابتداء الدوام، فلا يتساهل بعد قرع الجرس، ودخول الطلاب إلى الفصول، مع أيّ طالب يتأخر، ولو دقيقة واحدة، وكان يقول للطالب المتأخّر وهو يحاسبه: «**لماذا تأخّرت خمس دقائق ـ مثلاً، ولم تبكّر نصف ساعة؟!**».

وكذلك عالج، بالحكمة والموعظة الحسنة، تقصير بعض المدرّسين، الذين ألفوا التسيّب والإهمال، حتى انضبطوا بالنظام واستجابوا له».

ـ **وخلال عمله في الثانوية الشرعية**، قام بإصدار العدد الأوّل من مجلة: (**صوت الثانوية الشرعية**)، وقد كتب فيه مقالة ضافية عن الخطّ العربي، والزخرفة الإسلامية، وقدَّم نماذج جميلة من ذلك، وكان إصدار هذه المجلّة ميداناً لتنافس الطلاب في كتابة المقالات، والحرص على النشاط الفكري والدعوي الجادّ.

وعندما أنهي انتداب الشيخ رحمه الله ترك بصماته الواضحة على هذا المعهد العلمي العريق، وفي قلوب أبنائه البررة، وأساتذته الغيورين، ومحبّيه المشفقين.

ثانياً ـ عمله في المعهد العربي الإسلامي مدرّساً للغة العربية[1]، وذلك من سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥م:

انتدب الشيخ لتدريس مادّة اللغة العربية في المعهد العربي الإسلامي، كما تعاقد للتدريس في عدّة مدارس خاصّة، منها ثانويّة الغزالي، والثانوية العلمية، ومع أن الشيخ كان يسند إليه تدريس اللغة العربية فقد كانت صورته الظاهرة، وتأثيره في قلوب الطلاب يجعل الناظر لا يشكّ أنه أمام مدرّس للدين، وداعية من دعاته، إذ كان يمزج مادّته التي يدرّسها بالتربية الإسلامية القويمة، والنصح الدائم والتذكير، فلا يشعر الطلاب إلا وهم مأسورون لحديث الشيخ وتوجيهه.

ـ **يقول عنه الأستاذ أحمد كرزون**، وهو صاحب الثانوية العلمية، وقد

---

(١) وهو من المدارس المتوسّطة والثانوية الخاصة، يتبع (الجمعية الخيرية الإسلامية) بحلب، وكان يهدف إلى إنشاء جيلٍ مؤمن، قويّ في دينه وعلمه، وتربيته وأخلاقه، وقد اختيرت له ثلّة طيّبة من خيار رجال التربية والتعليم في حلب.

درَّس الشيخ عنده فيها[1]: «كان الشيخ أحمد مدرِّساً ناجحاً في أسلوبه وضبطه، ومحبّة الطلاب له، وحرصهم على حضور دروسه، وقد تميَّز رحمه الله ببذل الجهد المخلص في التدريس، وجمع معه الإرشاد في اختيار النصوص والشواهد التي يقرّرها للطلاب، وتوزيع الكتب الهادفة من مكتبة الثانوية، لتلخيصها كواجب للتعبير، مما كان له الأثر الكبير في حُسن توجيههم ورعايتهم... وكان لقربه من الطلاب، ومحبّة الطلاب له، وارتياحهم لأسلوبه يعرضون عليه إشكالاتهم الدينية، وما يعرض لهم من شبهات في العقيدة، أو الأحكام الشرعية، وما يلقيه عليهم بعض أعداء الإسلام من أباطيل، فكان لا يتبرّم من أيّ إشكال أو شبهة، بل يجيب عن ذلك كله بانبساط مع الطلاب وانفتاح لهم، وحوار أخويّ بعيد عن أيّ قيود.

وكان يربط لهم الحقائق الدينية التي يعرضها بالواقع الاجتماعي الذي يعيشونه، ويثبت لهم صلاحية الإسلام بعقيدته وتشريعه وأحكامه لكل زمان ومكان، وأن لا سعادة للبشر إلاّ باتّباعه، والعودة إليه في كل شأن.

وقد حدَّثنا كثيراً عن مثل هذه الحوارات المشوّقة مع الطلاب، وسجّل بعضها في كتبه، وبخاصّة في سلسلة العقائد[2].

وكثيراً ما أثمرت تلك المناقشات، وتمخّضت عن اهتداء الطالب الذي ألقى الشبهات، أو ناقشها مع الشيخ، بل إن بعضهم أصبح من إخوانه وتلاميذه».

٢ ـ نشاطه الديني والدعوي:

ـ **أما نشاطه الديني والأعمال التي قام بها**؛ فقد أسند الشيخ عيسى رحمه

---

(١) وقد تفضَّل عليَّ جزاه الله خيراً بكتابة صفحات عن ذكرياته مع الشيخ رحمه الله، وما عرف عنه من مناقب ومآثر، خلال عمله معه في مجال التعليم، وصحبته له في سفر الحجّ المبارك.

(٢) انظر كتاب: (الإيمان بالله تعالى) للمترجَم له، ص٤٢، (حوار مع طالب)؛ وكتاب (الإيمان باليوم الآخر)، ص١٣٧، (بيني وبين طالب).

الله إلى ولده الشيخ أحمد الخطابة والإمامة نيابة عنه في مناسبات مختلفة، وعندما توفّي الشيخ عيسى رحمه الله عام ١٣٦٣هـ الموافق ١٩٤٣م كما سبق، أسندت خطابة جامع (العثمانية)، وإمامة جامع (أبي ذر) لولده الشيخ أحمد رحمه الله فقام بذلك على خير وجه.

وكان للشيخ تجربة سابقة في الخطابة والإمامة عندما كان يدرّس في الريف، فقد كان في القرية مسجد مهجور، فافتتحه واعتنى به، وأمَّهم في الصلوات، وصلّى بهم الجمعة، وأقام لهم بعض الدروس، فاجتمعت قلوب الناس عليه.

وحدَّثنا رحمه الله أن المسجد أصبح يغصّ بالمصلّين في أيام الشتاء الباردة، كان الناس يأتون من أطراف القرية إلى صلاة الفجر في الظلمة والمطر، والوحل والطين.

وكان أهل القرية عشيرتين مختلفتين، فاجتهد في إصلاح ذات بينهم، وجمع كلمتهم، وزار كلا الفريقين في مجالسهم وأنديتهم، حتى تمكّن من غسل العداوة والبغضاء بين قلوبهم.

وأقام لهم في المسجد دروساً في الفقه وتلاوة القرآن الكريم وتجويده، وحثَّ الناسَ على تربية أبنائهم على مبادئ الإسلام وهديه، وفضائله وآدابه، والقيام بمسؤوليتم في ذلك.

فعندما أُسندت إليه الخطابة والإمامة بعد وفاة والده كان له من تجربته السابقة ما يعينه على القيام بمسؤوليته خير قيام، وأداء الأمانة على أحسن وجه.

ـ وقد كان في الخطابة على منهج والده الشيخ عيسى، يرى أنّ الأنفع فيها للناس والأقوى تأثيراً، أن تكون مكتوبة، فهي أدقّ في عرض الفكرة، وأجمع للموضوع وأبلغ في التأثير، وقد دأب على ذلك، وكانت خطبته تمتاز ببلاغة القول وحُسن العرض وجزالة اللفظ، كما كانت موضوعاتها تعالج مشكلات المجتمع، وما يحتاجه الناس من تقوية الإيمان، والتعريف بحقائق الإسلام

ومبادئه، ونشر محاسنه وفضائله، وردّ شبهات أعدائه، والحثّ على اتّباع أحكامه، والتزام آدابه، وبيان أسباب تخلّف المسلمين، وتسلّط أعدائهم عليهم.

وكان مَنْ يسمع إلقاءه لخطبة الجمعة، لا يظنّ أنه يلقي من الورقة، لما كان عليه من صوت جهوريّ، ولهجةٍ خطابيّة فصيحة مؤثّرة.

- **وأما نشاطه الدعوي؛ فقد كانت للشيخ تجارب دعوية ثرّة في مجالات متعدّدة:**

١ - منها ما يتصل بالعمل الدعويّ العامّ، الذي يتصل بالعامّة تعليماً وإرشاداً وتوجيهاً.

٢ - ومنها ما يختص بالعمل الدعوي الخاصّ مع العاملين للإسلام، والدعاة إلى الله؛ تدارساً للمنهج الأمثل في خدمة الإسلام والدعوة إلى الله، والتشاور في أمور المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- **ثـم إن هذه الأعمـال الدعويـة؛** منها ما اتخذ صفـة مرحلية، ثم زال بزوالها، ومنها ما اتخذ صفة الاستمرار على حسب طبيعته أيضاً، حتى اتصل بمرحلة الانطلاق بالدعوة، وتربية الشباب على المنهج الذي اختاره، وسنعرض هنا كلا النوعين من هذه الأعمال عرضاً موجزاً مجملاً.

- **فأما ما يتعلّق بالعمل الدعوي العام**، الذي يتّصل بالعامّة فنجمله فيما يلي:

١ - العمل الدعوي في ميدان الريف وآثاره.

٢ - العمل الدعوي والتربوي في ميدان التعليم في المدارس، وقد سبق الإلمام بهذين المجالين قريباً.

٣ - **العمل** مع إخوان الشيخ محمد أبي النصر خلف رحمه الله، وتلامذة والده ومحبيه.

٤ - **العمل** الدينيّ والدعويّ مع أبناء الحي ورجاله من جيران جامع أبي ذر.

- **أما العمل مع إخوان الشيخ محمد أبي النصر** وتلامذة والده رحمهما الله

ومحبيهم؛ فقد ترك الشيخ محمد أبو النصر مراكز للدعوة والإشعاع الإيمانيّ والتربويّ، وكانت تلك المراكز يعوزها الأئمة الربانيون، والتلامذة المجتهدون، الذين يتابعون طريق شيخهم بتجرّد وإخلاص، وصدق وتجديد، يتمّمون ما بدأه، ويتابعون ما وقف عنده.

وقد كان من أبرز هذه المراكز في مدينة حلب (جامع أبي ذر)، وذلك لمجاورة سكن الشيخ عيسى رحمه الله له، وهو أرفع تلاميذ الشيخ محمد أبي النصر قدراً، وأنبههم ذكراً، وقد كان كثير من تلامذة الشيخ أبي النصر يتوقّعون أن يكون الشيخ أحمد خليفة للشيخ أبي النصر.

فتقدّم الشيخ أحمد إلى ذلك المجلس ليملأه، وقد حوِّلت إمامة الشيخ عيسى من جامع العثمانية إلى جامع أبي ذر بعد وفاة الشيخ عيسى وأُسندت إلى ولده الشيخ أحمد، فاجتهد الشيخ أحمد في تحويل دعوة الشيخ محمد أبي النصر إلى منهج دعويّ عمليّ، يقوم على تقديم وصايا إسلامية تتصل بحياة المسلم اليومية لإحياء العمل بالإسلام وتطبيق أحكامه، وجعل وراء تلك الوصايا محاسبة أسبوعية لتقوى عزيمة المؤمن، وترتفع همّته، وتلك هي الترجمة العملية للتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر، ولم يرتضِ الشيخ لتلك الدعوة أن تكون قاصرة على الوعظ والتذكير، والالتزام بالأوراد والأذكار، وقد وجد بعض الناس في هذا الأسلوب نشاطاً وقوة، فتجاوبوا معه واستحسنوه، ولكن كثيراً من العامة بل وبعض طلاب العلم أيضاً، لم يألفوا هذا الأسلوب ولم يعرفوه، ووجدوا في الدعوة إلى مجاهدة النفس، وتكليفها الالتزام بفضائل الإسلام وآدابه خروجاً عما اعتادوه وألفوه، وتبرّم هؤلاء وقال قائلهم: «إنَّ الشيخ أحمد يريد أن يخرج على طريقة الشيخ محمد أبي النصر، وطريقة والده الشيخ عيسى، ويريد أن يعمل مشيخة لنفسه»[1].

---

(١) وقد سمعت تفصيل ذلك من الشيخ عثمان حزواني رحمه الله، وكان من خلّص تلامذة الشيخ محمد أبي النصر ومحبّيه، ثم من تلامذة الشيخ عيسى، وبعد ذلك=

ثم كان خلاف كبير على أمور أخرى شرعيّة امتدّ طويلاً، ثم آل الأمر إلى اعتزال الشيخ للعمل مع جماعة الشيخ عبد الباسط ولد الشيخ محمد أبي النصر، وتبعه في ذلك من ارتضى طريقته، واستجاب لدعوته[1].

ـ **وأما عمل الشيخ مع أبناء الحيّ ورجاله**، من جيران جامع (أبي ذر)، وكان أكثرهم من العامة وكبار السنّ، فقد كان يصلي فيهم الصلوات الجهرية، ويجلس بعد صلاة الفجر فيقرأ لهم في كتاب من كتب العلم، ويشرح ما يقرأ.. ولم يدع فرصة يمرّ فيها ذكر شيء من فضائل الإسلام وآدابه إلاّ استغلّها بالحثّ والتذكير والدعوة والتوجيه للتمسُّك بتلك الفضائل والآداب.

وكان المواظبون على تلك المجالس يستمتعون بما يسمعون، ويسرّون بما عليه يطّلعون، ولكنّهم لا يغيّرون من واقعهم أو واقع أسرهم شيئاً مع كثرة تذكير الشيخ بهذه المعاني وحثّه عليها.

وقد قرأ الشيخ في تلك المجالس موسوعات علميّة منها: (فيض القدير شرح الجامع الصغير) للإمام المناوي، و(حلية الأولياء) للإمام أبي نُعيم، و(الشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض، وغيرها من الكتب، واستمرّ على ذلك عدّة سنين، ولكن الحصيلة العملية من ذلك كانت ضعيفة هزيلة، فخرج بنتيجة أن العمل مع العامّة وكبار السنّ، ضعيف الأثر والجدوى.

ـ **وأما العمل الدعوي الخاص**، مع العاملين للإسلام من العلماء والدعاة إلى الله تعالى، **فنجمل الحديث عنه في ثلاث نقاط:**

= تتلمذ على الشيخ أحمد ولازمه.

(١) إنَّ قصّة هذا الخلاف طويلة الذيل، ممتدّة الآثار، لم يكد طالب علم في مدينة حلب وبعض محافظات الشمال أن يبتعد عنها أو لا يكون له موقف منها، وقد أضربت عن الخوض فيها هنا رعاية لحقّ الدعوة والتاريخ، واكتفيت هنا بالإشارة إلى ما كان وراءها من آثار.

١ ـ دعوة الأقران وزملاء الدراسة وأسلوبه فيها .

٢ ـ المشاركة في إنشاء (دار الأرقم) والعمل مع رجالها، ثم الاعتزال عنها.

٣ ـ نشاطه مع العلماء والدعاة إلى الله، وسعيه لجمع كلمة العلماء وتوحيد جهودهم.

١ ـ **فأما دعوة الأقران وزملاء الدراسة وأسلوبه فيها**، فقد حدَّثنا رحمه الله أنَّه عندما أكرمه الله بالهداية، عكف على نفسه وأسرته أولاً، ثم رأى أنّ عليه حقّاً شرعياً لازماً نحو أولئك الذين قضى معهم سنيّ دراسته، وكانت بينه وبين بعضهم علائق ودّ وصداقة وثيقة، فاتخذ لمخاطبتهم أسلوباً من الأساليب النبوية في الدعوة، إذ أرسل إليهم رسائل، يتلطف فيها بالخطاب، ويبتدئها بذكر محبته لزميله، وأنه يريد له الخير كما يريده لنفسه، ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويذكّره بحياتهم الدراسية، وما كان فيها من إيجابيات، ويسأله عن حاله واهتماماته في هذه الحياة وطموحاته، ثم يوضّح له ما وفّقه الله إليه من الاتباع والالتزام بأوامر الله، وهدي رسوله ﷺ وسنّته، والدعوة إلى سبيله، وأنّ السعادة الحقيقية للمرء أن يعرف قيمة وجوده، وغاية خلقه، وعاقبة أمره، ثم يختم رسالته بالرغبة بالزيارة لتدارس هذا الأمر والوصول إلى نتيجة[١].

ثم تكون الزيارة للتأكيد على تلك المعاني والوصول إلى نتيجة محدّدة، وقد كانت إجابة كثير من هؤلاء، فيها مجاملة وثناء على الشيخ بما هو عليه، ورضا بما هم عليه، وأنّهم على خير، واعتذر بعضهم أنه لا يستطيع الخروج عما هو عليه من عادات، وقد عدَّ الشيخ هذا الأسلوب الذي اتّخذه مع زملاء دراسته إعذاراً له عند الله، وقضاء لحق الصداقة والمعرفة التي كانت بينه وبينهم.

---

(١) ينظر نموذج تلك الرسائل في: (مراحل حياتي بقلمي).

٢ ـ وأما **مشاركة الشيخ رحمه الله تعالى في إنشاء (دار الأرقم)** والعمل مع رجالها، ومتابعة تطوراتها، ثم الاعتزال عنها، فلماذا شارك في إنشائها؟ ثمّ لماذا اعتزل عنها؟

لقد كان للشيخ رحمه الله علاقات وثيقة مع ثلّة من رجال الفكر الإسلامي ذوي الغَيرة الدينية، والتوجُّه الدعوي؛ منهم القاضي الشرعي الشيخ عبد الوهاب الألتونجي، والشاعر الإسلامي الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، والعالم الفقيه الشيخ مصطفى أحمد الزرقا، والمحامي الشهير الأستاذ عبد القادر السبسبي[1]، وغيرهم آخرون.. فكانت بينهم لقاءات، يتدارسون فيها واقع الأمة، والسبيل الأمثل لخدمة الإسلام، فتمخضت تلك اللقاءات المتتالية عن إنشاء ما أسموه: **(حركة التهذيب الروحي)** أو **(الإحياء الروحي)** ولعلّ التسمية تكشف عن أهداف تلك الحركة ومقاصدها، وقد اقترح لها كتاب: (إحياء علوم الدين)، للإمام الغزالي رحمه الله، ليكون مرجعاً يلتقي عليه أولئك المجتمعون[2].

ـ **ثم تسمَّت تلك (الحركة)**: (جماعة شباب محمد ﷺ)، **ثم غيّرت التسمية إلى (دار الأرقم)** وتمّ اختيار مركز لها في باب النصر في مدينة حلب، واتّبع المنتسبون إليها أسلوباً لجلب الناس إلى المركز، وذلك بإنشاء قاعة للمطالعة المجانية، وتمّ التبرّع بالكتب من المنتسبين إلى: **(دار الأرقم)**، وشجّع الناس على ذلك، فامتلأت المكتبة بالكتب ما بين عشية وضحاها.

ثمّ اقترح القائمون على (دار الأرقم) أن يتمّ إصدار: (نشرة أخبار العالم

---

(١) قال عنه في الأعلام: ٤/٣٨: حقوقيّ من أهل حلب مولداً ووفاة (١٣٠٤ ـ ١٣٩٣هـ = ١٨٨٦ ـ ١٩٧٣م) حفظ مجلّة الأحكام العدلية، وعمل محامياً ومدرّساً، وكان من مؤسّسي دار الأرقم بحلب (١٩٣٦م).

(٢) وقد سمعت تفصيل إنشائها من الشيخ رحمه الله في عدّة مناسبات، كما سمعت طرفاً منه من الأستاذ الأميري رحمه الله.

الإسلامي)، لتعريف المسلمين بما يجري لإخوانهم في العالم، وما يقع من أحداث، فنفّذت الفكرة، فكانت تُعدّ نشرة الأخبار كلّ أسبوع، ويتمّ إلقاؤها على الناس بعد صلاة الجمعة، في الجامع الأموي الكبير في حلب، ثم تُلقى أيضاً في جامع (بانقوسا).

ـ **ولقد كان هدف الشيخ رحمه الله** ـ كما حدّثنا ـ من لقائه مع هؤلاء الدعاة أن تكون حركة عملية تطبيقية، تهدف إلى التمسّك بالإسلام، والدعوة إليه على بصيرة.

وظلَّ الشيخ في جميع لقاءاته ـ كما أخبرنا ـ يركّز على هذه المعاني، ويحاول أن يشدّ الحركة إلى الوجهة التطبيقية العملية، التي تعنى بالالتزام الإسلامي، وتهتمّ بالاتباع، ولكنه رأى بعد مدّة أنّ كثيراً من المجتمعين لا استعداد عندهم للتجاوب مع خطته العملية، ولا توجّه لهم إلى ذلك، فقرّر أن يعتزل عنهم، إذ كيف يتحمّس للإسلام، ويغار على دين الله، ويحمل دعوته من لا يستجيب لفضائله ولا يلتزم بآدابه؟! لقد كان السلوك الإسلامي الملتزم، هو محكّ الرجال وميزان الدعوات في نظره رحمه الله.

٣ ـ **وأما نشاطه مع العلماء والدعاة إلى الله تعالى**، وسعيه لجمع كلمة العلماء، فيعدُّ هذا المجال الدعوي من الجوانب الحيوية الهامة في حياة الشيخ رحمه الله، إذ ظهر في مرحلة مبكرة من حياته، ثم استمرّ واتصل إلى وفاته، وهو من ناحية أخرى يبرز إيجابية الشيخ وتضحيته في سبيل الله، وقوّته في الحق، كما يبرز لنا مكانته بين إخوانه العلماء.

ولقد عُرف الشيخ رحمه الله بين علماء (حلب) سبّاقاً إلى كلّ لقاء، وعرفوه إيجابياً بما يتبنّى من مواقف، وما يقدم من آراء.

وكانت لقاءات العلماء على نوعين: منها ما هو دوري رتيب، ومنها ما يكون في أوقات الأزمات والشدة، وكان (مجلس جامع أبي ذر) المسمى (الليوان) وفيه مكتبة الشيخ الخاصة، مفتوحاً للقاء العلماء في كل مناسبة.

- وكان يرى رحمه الله أن خير أسلوب ينظّم هذه اللقاءات، أن تقوم الشورى الحقيقية، واحترام الرأي، والبعد عن الفردية والاستبداد بالرأي من قِبَل أيٍّ كان.

وكان لاجتماع العلماء وتشاورهم نتائج طيبة في إلغاء كثير من المنكرات، ومظاهر الفساد والانحراف الأخلاقي في المجتمع، والقضاء على الحفلات الماجنة، التي يُراد من ورائها إفساد الناشئة، وزرع بذور الفساد في الأمة. ولقد بلغ من هيبة العلماء ببركة اجتماع كلمتهم، أنهم كانوا يسمعون بمنكر من المنكرات أنه سيحدث في أي مكان من مدينة (حلب) فيجتمعون ويتشاورون، ثم ينتدبون بعضهم لمقابلة المحافظ لإلغاء هذا المنكر، فما يكون من المحافظ إلا أن يتصل بالجهة التي تريد إقامة الحفلة، ويبلغها ضرورة إلغائها بناءً على احتجاج العلماء واستنكارهم، ولقد حدث من ذلك مواقف عديدة كان لها أثر طيّب في الحياة العامّة للأمّة.

- وكان قمّةَ نشاط الشيخ الدعويّ التفاته إلى تربية الشباب وتوجيههم، وتُعدُّ هذه المرحلة المرحلةَ الغنيّة الخصبة في حياته نشاطاً وعطاءً، ودعوة وتربية، وتأليفاً وكتابة، وهي ثمرة تكوينه العلميّ والتربويّ، ومن بركات منبته الطيّب، وما منَّ الله به عليه من مواهب.

وقد تبلور في هذه المرحلة من حياته فهمه الإسلامي، ومنهجه الدعويّ والتربويّ، على ضوء خبراته في شتّى الميادين الاجتماعية، كما تجلّت فيها شخصيته بخصائصها ومزاياها.

وهي تعدّ الخاتمة الحسنى التي ختمت بها حياته رحمه الله، إذ إنها تبدأ من عام ١٣٨٥هـ الموافق لسنة ١٩٦٥م، وتمتد إلى وفاته رحمه الله وأجزل مثوبته[١].

---

(١) وسنتناول الحديث عن ذلك عند الحديث عن منهجه الدعويّ والتربويّ في المبحث الرابع من هذا الفصل بإذن الله تعالى.

٣ ـ نشاطه الاجتماعي:

أما نشاطه الاجتماعي، فكلّ ما سبق الحديث عنه من أوجه نشاطه رحمه الله تعدّ ألواناً من النشاط الاجتماعيّ، الذي خاضه الشيخ في حياته، وكان فيه إيجابيّاً معطاءً.

وبقي لون نحبّ أن نشير إليه، وهو **إيجابية الشيخ في علاقاته الاجتماعية**، ودقّة ذوقه في معاملة الناس، ومراعاة مشاعرهم وعاداتهم التي تتعارض مع هدي الإسلام، ومشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم، وتقديم الهدايا لهم تأليفاً للقلوب، وحرصاً على نشر الدعوة، والأمثلة على ذلك من حياته كثيرة متنوّعة، وقد كانت سبب هداية كثيرين واستجابتهم، وسيمرّ بنا طرف منها في الحديث عن أخلاقه وصفاته بإذن الله.

وكان لا ينتظر من أحد جزاءً ولا شكوراً، ولا ردّ زيارة بمثلها، أو هدية بأحسن منها.

وكان يشارك في الأفراح التي يدعى إليها، وقد أخذ نفسه بعزيمة ألاّ يتلكّأ عن الكلام في مثل هذه المناسبات، ونصح الحضور وتذكيرهم، فقد قضى الشيخ رحمه الله في ميدان التعليم المدرسي أكثر من ثلاثين سنة، فامتزج النصح والتذكير بشخصيته وكيانه، وإن من حكمة الداعية وعقله وذكائه أن يحسن التعامل مع كلّ الفئات، ويخاطب الناس بما يفهمون، ويتخذ الأساليب المناسبة للتأثير فيهم، والدخول إلى قلوبهم، وإننا لن نبلغ ذلك إلا بالسلوك الإسلامي الحكيم، والتحقّق بالخلق النبوي الكريم، وهذا ما كان يحرص عليه الشيخ رحمه الله في كل مناسبة.

* * *

المبحث الثالث

شخصيّته وأخلاقه وصفاته

● حليته:

لقد حبا الله تعالى الشيخ أحمد بسطة في الجسم، وقوة في البدن وفتوة، وحيوية ونشاطاً يلحظ ذلك كل من رآه، وكان ذلك عنوان شخصيته الباطنة التي يكتشفها الإنسان بالمخالطة والتعامل. كان أقرب إلى الطول، بل يعدُّ طويلاً في عرف الناس، ممتلئ الجسم مع تناسب في الأعضاء ظاهر، حنطي البشرة، أسود العينين واسعهما، أقنى الأنف، ضليع الفم، ناعم الصوت مع قوّة وجهارة صوت، فصيح اللسان بيّن الحروف والمخارج من غير تصنّع أو تكلّف، خفيف اللحية، سويّ الخلقة، وكان سريع المشية، ما رأيت أحداً أشبه بمشية رسول الله ﷺ منه، كان إذا مشى كأنما ينحطّ من صبب، يبدأ من لقيه بالسلام عرفه أم لم يعرفه، متواضعاً في مشيته ولباسه، ومجلسه وحديثه، رفيع الذوق فيما يأتي ويذر، بعيداً عن التصنّع والتكلّف.

● ملامح شخصيته وخصائصها:

تتجلّى أهمّ ملامح شخصية الشيخ رحمه الله في النقاط التالية:

١ ـ طبيعة جامعة، عملية واقعية.

٢ ـ واعية نزيهة، مربية حكيمة.

٣ ـ قائدة موهوبة، إدارية دقيقة.

٤ ـ قوية عزيزة، مهيبة محبوبة.

ونتكلّم عن هذه الملامح فيما يلي باختصار:

١ ـ طبيعة جامعة، عملية واقعية:

ولقد كان الشيخ رحمه الله من ذوي الطبيعة الجامعة العملية الواقعية، يعرف ذلك كل من عرفه وخالطه، ولقد تركّزت تربيته العملية على ذلك، وأولاه عنايته واهتمامه.

ـ **أذكر أننا كلّفنا مرة** باقتراح منهج مناسب لمستوى من مستويات الإخوة، فعقدنا لقاءات عديدة، وخرجنا بدراسة رتّبناها وعرضناها على الشيخ رحمه الله فنظر في تلك الأوراق وقلّبها ثمّ قال لنا مبتسماً: «**لقد كنّا شباباً مثلكم كتبنا وخطّطنا، ووضعنا تصورات كثيرة، ثم رأينا أن القليل العملي الواقعي، الذي ينفّذ، خيرٌ من كثير لا يتجاوز الأوراق التي كتب فيها، فأعيدوا النظر فيما اقترحتم وكتبتم، وحددوا من ذلك ما ترونه واقعياً عملياً..**».

ـ **ومع بواكير توجّه الشيخ الدينيّ والدعويّ** كانت ملاحظته الأساسية على كثير من الدعاة؛ الانشغال بالكلام عن الالتزام والعمل، وقد حدّثنا عن لقائه مع الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله في موسم الحج، وتعرّفه عليه، وكان الشيخ قد سمع بدعوة الشيخ البنا، فبعدما تحدّث الإمام عن دعوته، وعرّف الحاضرين بها، سأله الشيخ أحمد سؤالاً واحداً في هذا اللقاء: ما مدى تطابق هذه المفاهيم عن الإسلام ومبادئه مع سلوك القائمين بالدعوة؟ فابتسم الشيخ حسن البنا، وقال له: «**هناك فرق بين كل دعوة والواقع الذي يكون عليه أبناؤها، ولكننا نسعى مستعينين بالله، أن نترجم أقوالنا إلى أفعال، وألا يكون حظنا من دعوتنا الكلام**».

وقد كانت الحياة العملية محور دعوة الشيخ وفكرته في دروسه وخطبه وكتبه وتوجيهاته.

٢ ـ واعية نزيهة، مربية حكيمة:

وقد تجلّت في شخصية الشيخ صفة الوعي والنزاهة في أمور عديدة أهمها:

١ ـ التجرّد عن أن يتّخذ موقفاً، يكون فيه تبعاً لأحد من الناس دون اقتناع بذلك.

٢ ـ أصالة رأيه وفكره في منهجه الدعوي وفي حياته الخاصة.

٣ ـ دقّة فهمه وتحليله لواقع الأمة ومشكلاتها، والعقبات التي في طريقها، وسبيل النهوض بها، والوسائل والأساليب التي ينبغي اتّباعها والأخذ بها في هذا العصر.

٤ ـ وعيُهُ لمخططات أعداء الإسلام، وأساليبهم في التسلل إلى الأمة الإسلامية، وإحكام السيطرة عليها، بتذويب الشخصية الإسلامية في العادات لضمان تبعيّتها، وتفريغها من هويّتها المؤثرة الفاعلة، وسيمرّ بنا في الفصول التالية من الأمثلة والنماذج ما يعفينا عن التدليل هنا.

ـ **وأما نزاهة الشيخ** فأذكّر بما سبق في الفصل الأول من شهادة الشيخ طاهر خير الله رحمه الله إذ يقول: «**إنَّ من أعلى الصفات التي رأيتها في الشيخ أحمد** رحمه الله: **الإخلاص والغيرة على المصلحة والنزاهة، وأشهد أنه ما اقترح يوماً ما اقتراحاً، أو قدّم رأياً، وكان له فيه حظّ لنفسه أو مصلحة لها، بخلاف بعض الناس الذين لا تحرّكهم إلا أهواؤهم، ولا يدورون إلا في فلك مصالحهم الخاصة**».

٣ ـ قائدة موهوبة، إدارية دقيقة:

١ ـ برزت شخصية الشيخ القيادية منذ شبابه المبكّر فانتسب إلى فرقة الكشافة، وقاد رحلاتها، ثم اعتزلها عندما ابتعدت عن هدي الإسلام وآدابه كما حدّثنا بذلك رحمه الله.

٢ ـ وظهرت إدارته الدقيقة في إدارة الثانوية الشرعية كما سبق قريباً.

ولم يكن مجاله في ذلك قاصراً على ضبط النظام، والقضاء على التسيب والفوضى، بصورة إدارية بحتة، وإنما امتزج ذلك بالتوجيه التربوي، والحبّ

والشفقة، وشعّ عليه إخلاص الشيخ وغيرته، مما جعل كثيراً من طلاب العلم يستشعرون أن الشيخ بمنزلة الوالد لهم، وهذا ما شهد به كثير من طلاّبه وتلامذته.

٣ ـ كما ظهرت قيادة الشيخ وضبطه وحسن إدارته، ودقته وحرصه على النظام في منهجه الدعوي وسلوكه التربوي في بيته ومع طلابه في المدرسة وفي تربيته للشباب في المسجد.

ـ **فحياته الأسرية وتربيته لأولاده،** كانت تقوم على النظام والانضباط والدقة في العمل، وكانت أعمال البيت موزّعة بين البنين والبنات بعدل ونظام، يعرف كلّ واحد منهم واجباته ومسؤولياته.

ـ **وكانت حياته الخاصة منظّمة بدقّة؛** في عبادته ومواعيد نومه وراحته، وطعامه وشرابه، لا يخرج عن نظامه في ذلك إلاّ نادراً.

ـ **وكان يغرس في طلاّبه حبّ النظام والانضباط،** ويعلّمهم أنّ ذلك من أخلاق الإسلام التي استهتر بها كثير من المسلمين، فيحثّهم على تنظيم حياتهم، وأداء واجباتهم في وقتها، ويرون مصداق ذلك في شخصيته وسلوكه، فيستجيبون لنصحه وتوجيهه.

ـ **وفي ميدان تربيته** لإخوانه وعلاقته بهم **تجلَّت شخصية الشيخ القيادية الموهوبة، وإدارته الدقيقة الحازمة،** إذ كان يرى أن ذلك من لبّ الإسلام وروحه، ومن أهم ما ينبغي أن تعنى به الجماعة التي تريد خدمة الإسلام، وبناء جيل إسلامي راشد.

ـ وكان يرى الانتظام والانضباط عبادة من العبادات التي فرّط بها المسلمون وأهملوها، وأنَّ ظاهرة التسيّب علّة من أسوأ علل العاملين للإسلام المستشرية في صفوف التجمعات الإسلامية، وهي في القادة والمسؤولين أفحش وأشنع.

ـ هذا وقد اصطبغت توجيهاته وتعليماته لإخوانه كلها بهذه الصبغة:

١ ـ فالاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، له نظامه الدقيق،

وبرنامجه المعلن، الذي يلتزم به الإخوة المعتكفون بدقّة.

٢ - والرحلات التربوية الهادفة مع ما فيها من ترويح عن النفس، لها نظامها الدقيق، وهي مضبوطة، بدءاً من الاستيقاظ للتهجّد إلى مثيله من اليوم التالي، لا وقت فيها للفوضى، أو العبث وضياع الوقت فيما لا يجدي.

٣ - والدروس الخاصة للإخوة لا يسمح بالتأخر فيها أكثر من خمس دقائق يعدّها فرقاً يتسامح به بين الساعات.

٤ - والأعمال المطلوبة من الإخوة يحاسبون ويتابعون على أدائها في الوقت المحدد.

٥ - ولكل أخ برنامج تربوي شامل بحسب سنّه ومستواه، فيه وصايا إسلامية متنوعة يسأل عن تطبيقها، ويحاسب على مدى الالتزام بها، وتناقش معه أسباب تقصيره وضعفه[١].

- ومن **أولى الرسائل الدعوية** التي كتبها الشيخ رحمه الله، وكانت مادة توجيهية وتربوية لجميع إخوانه؛ رسالة بعنوان: (**ضرورة العمل الإسلامي المنظّم الواعي**) ثم ضمّنها بعد ذلك في كتابه: (**الدعوة إلى الإسلام وأركانها**).

٤ - قوية عزيزة، مهيبة محبوبة:

كنتَ إذا جالستَ الشيخ يجذبكَ تواضعه الشديد، وتأسرك دماثة أخلاقه، ولطف معشره، ولكنك ترى إلى ذلك شخصية قد زانتها القوة في الحق والاعتزاز بالإسلام، يبرز ذلك في لهجته وحديثه، وتعامله ومواقفه، وكان كثيراً ما يتمثّل بكلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**نحن قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزّة بغيره أذلَّنا الله...**».

وقوة الشيخ في الحقّ وعزّة نفسه، جعلت له في قلوب الناس مهابة

---

(١) ينظر ما كتبه الباحث في كتاب: (أساليب تربوية ومواقف دعوية من حياة الشيخ أحمد).

وتقديراً، ومع تلك الهيبة فقد كانت شخصيته محبوبة، بما كان عليه من حكمة ولباقـة، وذوق في التعامل مع النـاس ولطف وبعدٍ عن الانتصار للنفس، أو السعي وراء حظوظها، فكان قريباً من قلوب مَن يعرفونه أو يخالطونه.

وبعد؛ فإنَّ جمع الشيخ رحمه الله تعالى بين هذه الخصائص والصفات في شخصيته كان محلّ إعجاب الناس به، وسرّ نجاحه في حياته ودعوته، وإلا فإن كثيراً من الناس من تكون له بعض هذه الصفات، ثم يكون له ما يضعفها أو يذهب بها، من أخلاق أخرى وصفات.

● أثر شخصيته في منهجه ودعوته:

ولقد انعكست شخصية الشيخ على سلوكه ومنهجه ودعوته، فتلمح تلك الشخصية بمزاياها في كل جانب من جـوانب حياته الخاصة أو العامة، ونعدّد هنا بعض النماذج، **فمن أهم هذه الآثار:**

١ ـ الأخذ بالعزائم والبُعد عن تتبّع الرخص، والأقوال الضعيفة أو الشاذّة.

٢ ـ الحرص التام على التزام السنّة، والعمل بها، وإحيائها.

٣ ـ الدقّة في الإعداد والتكوين، والحرص على الاتّزان في بناء الشخصية الإسلامية.

٤ ـ الاعتزاز بالإسلام، والصدع بالحقّ دون أن تأخذه في الله لومة لائم.

● صفاته الإيمانية:

ونتحدّث في هذه النقطة عن صفات الشيخ الإيمانية، التي رأيناهـا في حياتـه ومواقفه، وكـان لها تأثيرها في سلوكه، وفي استجابة الناس لفكرتـه ودعوته، وذلك في النقاط التالية:

١ ـ عقيدته وعبادته:

أما عقيدتـه؛ فهي عقيدة أهل السـنة والجماعـة، بمفهومها الصحيح، ومدلولها الواسـع، ومنهجـه في فهمها، وتدريسـها، والكتابـة فيها هو منهج

السلف الصالح، البعيد عن التكلفات التي لا طائل تحتها، فهو يؤمن بالصفات كما جاءت، ويفوّض في المتشابهات، ويصف الله سبحانه بكلّ كمالٍ وصف به ذاته أو وصفه به رسوله ﷺ، وينزّهه سبحانه عما لا يليق به، وقد حرص الشيخ على تربية أبنائه وإخوانه على أساس هذا الصفاء العقدي، وكَتبَ سلسلةَ العقائد لعامّة المسلمين بأسلوب سهل ممتع ميسَّر، وبلغة مناسبة للعصر، على هدي الكتاب والسنّة، وبالأسلوب القرآني في عرض العقيدة وتثبيتها في القلوب، مع الحرص على توضيح الحقائق، والإجابة عن الإشكالات وكشف الشبهات[١].

ـ وكان حريصاً رحمه الله على تثبيت العقيدة في قلوب طلابه في المدارس، وبثّ حقائقها، والإجابة عن شبهاتهم التي تتعلق بوجود الخالق سبحانه، وبالقضاء والقدر، التي يثيرها الملاحدة وأعداء الإسلام، فيضرب لهم الأمثال، ويجلّي الشبهات، ويحاورهم بحكمة وهدوء حتى تذعن عقولهم لمنطق الحق وحججه.

ـ **وأما عبادته؛** فقد حدَّثنا عن مجاهدته الشديدة لنفسه، أول إقباله على التمسّك بالسنّة وشغفه بالعلم، وقد تأثر في ذلك بكتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي رحمه الله، فأخذ نفسه بالمجاهدة الشديدة، حتّى نحل جسمه، واصفرّ لونه، ثم عاد إلى الاعتدال، الذي هو منهج السنّة النبوية في العبادة والعمل كله، فكان حريصاً على الاتّباع في عباداته والاعتدال فيها.

وكان محافظاً على نوافل العبادات حريصاً على التهجّد من الليل سفراً وحضراً، يربّي أولاده على ذلك، ويحثّ إخوانه ويوصيهم به ولو ركعتين من الليل.

وكان يحرص على قيلولة النهار والنوم المبكّر، فلا يسهر إلا لمصلحة شرعية راجحة رعايةً للاستيقاظ في وقت السحر، واغتنام نفحاته المباركة.

---

(١) انظر ما جاء في الفصل الثاني من هذه الدراسة من التعريف بسلسلة العقائد.

وكان كثير الذكر لله عزَّ وجلّ، ويظهر ذلك من حضور قلبه مع الله تبارك وتعالى، ورقّته وسرعة دمعته، وشدّة اعتباره واتّعاظه بكل ما يراه، أو يسمعه.

وكـان محافظاً على أذكار السنة وأدعيتها وآدابها، يأخذ بها، ويعلّمها إخوانه في كل مناسبة، ويحثّ على حفظها وأدائها في أوقاتها.

وكان حريصاً على الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان المبارك من كلّ عام، ويحثّ إخوانـه على ذلك، ويضع لهم نظاماً دقيقاً متنوّعـاً، يملأ الأوقات خلال اليوم كله، يُعلنه للإخوة، ويلتزمون بتنفيذه بدقّة، منه ما هو مشترك، ومنه ما يؤدّى بصورة فردية.

وأما رحلاته للحج والعمرة؛ فهي باب فريد من أبواب عبادته ونشاطه، وفنّ عجيب من فنون حبّه لله ورسوله ﷺ، وشوقه المتأجج وحنينه، يشهد بذلك كلّ من خالطه، أو أكرمه الله بصحبته في رحلة من هذه الرحلات المباركة.

وكان يشترط على من يرغب بصحبته في سفر الحج أن يستجيب لكل ما يرشده إليه من سنن وآداب وأوامر شرعية.. وكان يقول: «إننا نذهب إلى الحج لنتخلّص من ذنوبنا وأوزارنا، فكيف نصحب معنا من يصرّ على المعصيـة، ونخالطه ونجالسه، وهو يأبى أن يتخلّى عن مخالفة هدي النبي ﷺ؟! إن من شرط المرافقة الموافقة...».

وقال مرة لبعض التجار وقد أراد صحبته في رحلة الحج: «إنَّ شروطنا شديدة قد لا تتحملها ـ يريد أن يحمّسه بذلك ـ قال: وما هي؟ قال: «ألاَّ يصرّ مرافقنا على معصية، أو مخالفة للسنة...» قال: أفعل، قال: «فمن الآن، عاهد الله على ألا تحلق لحيتك»، فاستجاب وصحب الشيخ، وعاد محافظاً على كثير من الآداب والسنن التي تعلّمها في ذلك السفر المبارك.

وكان يعدُّ رحلة الحج والزيارة شفاء لقلبه وروحه وجسده، ويقول: «إنني أقضي نصف العام في ذكريات الحج والزيارة، ونصفه الآخر في الشوق والحنين إلى تلك الديار».

٢ ـ ولاؤه لله ورسوله ﷺ:

وقد كان الشيخ رحمه الله في الذروة ممن عرفنا في الولاء لله ورسوله ﷺ فمن ذلك:

ـ كنا معه مرّة في بعض الرحلات؛ فطلب منا أن نفكّر في أرجى عمل نتقرّب به إلى الله ونرجو أن يكون سبب نجاتنا بين يديه سبحانه، ففكَّر كلٌّ منّا بأعماله، وأجاب بشيء من ذلك: ثم سألناه عن أرجى أعماله عنده فقال: «**ليس لي كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكن أرجى عمل عندي: الحبّ في الله، والبغض في الله**». وله شعر كثير، يصف فيه حبّه لله تعالى ولرسوله ﷺ، وشدّة ولائه، ومنهجه في الطاعة، والحرص على الاتّباع الصادق(١).

ـ ومن مظاهر ولائه أيضاً لله ورسوله ﷺ شدّة فرحه بالشباب المقبل على الله تعالى، وكان يقول لنا: «**والله إنني أفرح بهؤلاء الشباب كما أفرح بأولادي، بل كان يقول: إنّ بعض هؤلاء الشباب أحبّ إليّ من بعض أولادي**».

٣ ـ تقواه لله تعالى وخشيته:

كان الشيخ عظيم الخوف والرجاء، كثير البكاء من خشية الله، يستشهد كثيراً بأقوال الصحابة وأحوالهم، وقد أملى علينا في أماليه: (تذكير وتحذير) طرفاً من ذلك، وكنّى نفسه (**أبا الرجاء**) أملاً في رحمة الله وفضله، وما رأيت رجلاً من أهل العلم بكّاء مثله.

وكان كثيراً ما يتمثّل بهذين البيتين، وقد كتبهما في بعض وصاياه:

أكرمَ الأكرمينَ أنتَ رجائي ... وشفيعي إليكَ أكرمُ خلقِك
أأُرى بينَ أكرمَيْنِ مضاماً ... أو مضاعاً، حاشا الوفاء وحقِّك

ومن تقواه رحمه الله حفظه للسانه ومجلسه عن الغيبة واللغو والكلام فيما لا يعني، ذكر مرّة بعض مجالسيه ظالماً باسمه وذكر أفعاله، فتغيّر وجه الشيخ

---

(١) ينظر كتابه: مجموعة العبادات، ص٢٧٨، ٢٨٢.

وقال له: «**نزّه فمك ومجلسك**».

وقال مرة أخرى في مثل ذلك الموقف: «**عند ذكر الصالحين تتنزّل الرحمات**».

٤ ـ زهده وورعه:

لم يحرص الشيخ على ادّخار شيء من المال، وكان دخله كبيراً بالنسبة لأقرانه، فلو أراد الادّخار لترك من بعده ثروة جيّدة، ولكنه كان يرى أنّ أموالنا في هذا العصر قد دخلتها الشبهات، ولا رخصة للمؤمن الورع أن يدّخر شيئاً منها.

ومن زهده رحمه الله، أنّه كان لا يبالي بإقبال الدنيا أو إدبارها، قد توكّل على الله في كلِّ شأن، وكان كل من خالطه يرى البركة ظاهرة في حياته وحياة أسرته، ويتمثّل كثيراً بقول سلمان الفارسي رضي الله عنه: «**أنا عبدٌ في بيتِ سيدي، ما أطعمني أكلت، وما كساني لبست**».

وكان من سيرته أنه يضع راتبه في صندوق صغير على رفّ ظاهر في البيت، فمن لزمه شيء من أولاده أخذ منه دون سؤال، فإذا نفد ما في الصندوق، استدان من بعض إخوانه إلى أن يحلّ الشهر الجديد فيفي ما استدان، ويضع ما بقي في الصندوق.

وكان يوسّع على أسرته توسيعاً ظاهراً فيما أحلّ الله وأباح، في سبيل حملهم على الالتزام بمنهج الله.

وكان يرى أنّ الدنيا أتفه من أن يحاسب المؤمن عليها إخوانه، أو يخاصم أحداً فيها، وكان يقول: «**والله! لو أن الدنيا كانت لقمة، وكان في تقديمها لأحد هدايته، لقدّمتها مسروراً، وكنتُ الرابح بذلك**»

٥ ـ أدبه وحياؤه:

وكان الشيخ عظيم الأدب مع الله ورسوله ﷺ، يتجلّى ذلك في شدّة تمسّكه بالدين، ودقة اتّباعه للمصطفى ﷺ، وأخذه بهديه، وإنكاره الشديد على

من يتوقف عن الطاعة والاتباع، لأنه لم يفهم الحكمة من الأمر والنهي، أو لأيّة علّة يتعلّل بها.

ومن أدبه مع الله ورسوله ﷺ، أنه كان لا يذكر اسم الله إلا بالتعظيم والتمجيد والحمد والثناء، ولا يذكر اسم رسوله ﷺ إلا بالصلاة والسلام عليه وعلى آله، مع توقيره وإجلال مقامه.

وكان من أدبه مع أصحاب رسول الله ﷺ نهيه عن الخوض في اختلافهم، لأنهم مجتهدون مأجورون، يبتغون نصرة الحق ورضوان الله، وكان يذكّر دائماً بفضلهم وسبقهم، ومواقفهم العظيمة في الجهاد والنصرة، فكيف يسبقهم سابق أو يدرك فضلهم لاحق؟ وقد اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ فجعلهم خير القرون، وكانوا خير أمة أُخرجت للناس.

ومن أدبه أنه كان يدعو إلى حسن الظنّ بالعلماء السابقين وأئمة الدين، وكل من عُرف بعلم أو صلاح، أو اشتغال بهداية الخلق، وأن تحمل أقوالهم وأحوالهم على ما يوافق الشرع، فإن لم يمكن نردها ولا ننسبها إليهم، ونعدّها قد دسّت عليهم من أعداء الإسلام أو من حسّادهم، ليكون المؤمن دقيقاً في أحكامه سليم القلب، حسن الظنّ بالمسلمين.

وكان يجلّ علماء عصره، الذين عرفوا بالورع والتقوى، والاستقامة في العلم والعمل، ويستفتيهم ويستنير بآرائهم، وقد رأيته مرّات يقبّل يد بعضهم.

ومن أدبه أنه كان لا يواجه أحداً بما يكره، بل يكنّي ويلمّح بألطف الكلمات والكنايات كما هو أدب القرآن والسنّة النبوية، ولكنه لا يستحيي من قول الحق والصدع به.

وقد خُتمت حياته رحمه الله وهو يكتب كتاباً جامعاً عن الآداب الإسلامية، فكتب جزءاً منه، ثم اشتدّ به المرض، ووافته المنية، وأقبل على ربّه بآدابه التي عاش حياته في رحابها[1].

---

(١) لم يعثر على مخطوطة هذا الكتاب فيما عثر عليه من مخطوطات كتبه.

٦ ـ إحياؤه للسنة وتعظيمها، وحرصه على الاتّباع الكامل لرسول الله ﷺ:

مرَّ بنا خلال هذه الدراسة نماذج عديدة من إحيائه للسنة، وحرصه على اتّباع المصطفى ﷺ، فلقد امتزج حبّه للسنّة، والحرص على إحيائها واتّباعها بلحمه ودمه، وكانت غيرته على تهاون الناس بها تفوق كل غيرة.

واسمع إليه يقول: «. . . فالمسلم الكامل يحرص على السنة حرصه على الفرض، لأن التهاون في السنة يؤدي إلى التهاون في الفريضة، ويفرّ من المكروه فراره من الحرام، لأن التهاون في الحرام، وارتكاب الصغيرة، يسوق إلى اقتراف الكبيرة. . والإسلام كلٌّ لا يتجزأ، وليس من شأن المسلم الكامل أن يمتثل أمراً، ويخالف آخر، وإلا كان كالذين قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

المسلم الكامل لا يقول مثلاً: إنَّ اللحية سنّة يجوز تركها، والنظرة الحرام صغيرة لا يضرّ إطلاقها، وخاتم الذهب في يد الرجل يسير يتغاضى عنه، والأمر الفلاني مستحبّ، فلا بأس بتركه. . لا، من قال هذا فقد حلّ من ثوب إسمه عروة، وعرَّض عراه إلى الانحلال. . من قال هذا، رضي بهدم حجر من صرح إسلامه، وعرَّضه للخراب والدمار. . من قال هذا، نزل من أوج إسلامه درجة، ومنها إلى أخواتها وانحدر بعدها إلى الحضيض. . من قال هذا، انحرف عن صراط الإسلام السويّ ومحجّته البيضاء درجة، ثم يبتعد عنه، ومن ابتعد ضلّ في الفيافي والقفار. . ومن هنا أصيب المسلمون في دينهم، ووصلوا إلى ما نرى من تضييع وضياع».

وكتب رسالة: **(التكريم الصادق بالاتباع الكامل)** لتعريف الناس بحقيقة الحبّ الذي يريده الله ورسوله ﷺ منهم، ولإحياء روح الاتباع للسنّة في قلوب الناس، والردّ على أولئك المدّعين للمحبّة بغير عمل أو اتّباع، ووزعت تلك الرسالة في مناسبات احتفال الناس في شهر ربيع الأول.

٧ ـ إخلاصه ونصحه، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

كان لكلام الشيخ تأثير واضح في القلوب، مما يدلّ على قوة إخلاصه

وصدقه، فكم من كلمات يسيرة ألقاها على بعض من تعامل معه أو التقاه، فكانت سبباً في هدايته وتغيير مجرى حياته.

وكان يلاحظ علينا دقائق الملاحظات في أنفسنا وعاداتنا وأخلاقنا ومظاهرنا فينصحنا ويوجهنا في الوقت الذي لم يرَ كثير منا من آبائهم وأمهاتهم مثل ذلك، مما يؤكّد على أن أثر العالم الداعية المربّي، أعظم من أثر الوالد وأبقى.

وكان رحمه الله لا يكون في مجلس عام أو خاص إلاّ وينصح ويذكّر، ويتحدّث عن علل الأمة وأدوائها، ويلفت الأنظار إلى خطر المعاصي التي وقعت فيها على الفرد والجماعة.

وأما أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر؛ فقد كان يراه الركن العظيم الذي تهدّم في حياة المسلمين الاجتماعية، وإقامته سرّ الحفاظ على تعاليم الإسلام حية، كما أن إهماله من قِبَل العلماء والدعاة أدّى إلى عودة الإسلام غريباً كما بدأ، وشيوع الجهل بالإسلام، وانتشار المفاسد والمنكرات، وكان يرى أن من عزيمة الداعية، ألا يقرّ منكراً في مجلس يجلسه، أو مناسبة يحضرها، وألاّ يسكت عن إنكاره، متحلياً بآداب ذلك وشروطه، واتّخاذ سبيل الحكمة والموعظة الحسنة في إنكار المنكر، وكتب في ذلك كتابه: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، ولقد عُرف رحمه الله بين الخاصة والعامة بحرصه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كلّ مناسبة.

ولكنّه كان حكيماً في أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حريصاً على استجابة المدعو، وقبوله للنصيحة وعمله بها، يبذل من ماله وجهده لإزالة المنكر، وإقامة المعروف بغير حساب.

وكان شديد الغيرة على حرمات الله إذا انتهكت، يرى في وجهه الغضب والحزن الشديد عندما يسمع بمنكر من المنكرات، وكان يرى أن المنكرات العامة لا يزيلها إلا اجتماع كلمة العلماء، ومراجعة المسؤولين فيها، فكان دائب السعي لجمع كلمة العلماء لهذا الغرض.

وطبيعة الشيخ العملية، جعلته لا يتحدّث عن المنكرات حديثاً عاماً، وإنما ترجم ذلك إلى أسلوب عملي، فكتب مذكّرة تحت عنوان: (**موقف المسلم الحق من منكرات الزمان**)، فصّل فيها المنكرات التي فشت في جميع مجالات الحياة الاجتماعية، وبيَّن ما يجب على المؤمن في إنكارها، وأملاها علينا في مجلس: (تذكير وتحذير) ثم ضمّن بعضَها كتابَه: (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**).

٨ ـ قوّته في الحق وصلابته، وجرأته وصراحته:

قوة الشيخ في الحق وصلابته كانت سمة ظاهرة تميّز حياته وشخصيته، فما أكثر ما كان يذكرُ ويذكّر: «أنَّ داء بعض الدعاة فضلاً عن عامة المسلمين أنهم ضعفاء مهازيل، مستكينون أمام الأهواء والشهوات، منهزمون أمام المغريات والملهيات، يتمكن من رقابهم الباطل في أول جولة من صراعهم معه، وإن أعظم ابتلاء لدعوة الإسلام أن يدّعي نصرتها من لا يكون قوياً في الحق، صلباً في دين الله...»[1].

أ ـ وإن من قوة الشيخ في الحق، وحرصه عليه، وجرأته فيه: أنه لم يكن ليؤثر عليه أهلاً ولا ولداً، ولا صديقاً ولا قريباً، ولم يكن ليبالي بمخالفة الناس له أو موافقتهم[2]، وإذا ظهر له أنّ الحق مع مخالفه سرعان ما فاء إليه ولزم ركابه، وكان يقول: «**إن أعناقنا جسر للحق وأهله**»، ويقول أيضاً: «**إن ولدي وأبعد الناس عندي في الحق سواء**».

ب ـ وكان إيثاره للحق وحرصه عليه يحمله على أن يشتدّ على أهله وولده أكثر من الآخرين، وكان يتمثّل بما أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا أراد أن يأمر الناس بشيء جمع أهله وولده وقال لهم: «إني أريد أن آمر الناس

---

(١) من أمالي الشيخ في (تذكير وتحذير).

(٢) وقد مرَّ بنا قريب من هذا الكلام في شهادة الدكتور نور الدين العتر في المبحث الأول من هذا الفصل.

بكذا وكذا، ووالله لا يبلغني أن أحداً منكم خالف ما أمرتُ الناسَ به، أو وقعَ فيما نهيتُ الناسَ عنه إلا أضعفتُ له العقوبةَ لمكانه مني».

جـ - ومن حرصه على الحق وإيثاره له: طلبه للنصيحة من إخوانه، ومن الناس بصورة علنية، وفي مجالسه الخاصة والعامة، وفرحه بالنصيحة التي تُقدَّم له، وشكره لصاحبها ومكافأته عليها، حتى ولو لم يتأكّد له وقوعه فيما يخالفها.

أذكر أن بعض الشباب قدّم للشيخ نصيحة أنه رآه يشبّك بين أصابعه في أحد دروسه العامة، وهو مكروه كراهة تنزيه في المسجد، فقبل الشيخ نصيحته، وقدّم له عليها هدية، وبلّغه أن محبته ازدادت في قلبه، مع أنه لا يذكر أنه فعل ذلك[1].

د - وله شعر لطيف في بيان حرصه على الحق، وإيثاره على الخلق، وهو من أقدم شعره، أذكر منه هذين البيتين:

إنّـــا مـــع الحـــقّ إذ ما النـاسُ جهـلاً أعـرضـوا
ولا نبـــالـــي بهمـــو إن سخطـــو أو إن رضـــوا

واسمع الشيخ يعبّر عن تصوّره لما ينبغي أن يكون عليه الدعاة إلى الله تعالى العاملون، من قوةٍ في الحقّ وحرصٍ على اتّباعه، في هذا النداء الذي يوجهه إليهم: «**اصدقوا الله يصدقكم، آمنوا بالله كما آمن به المسلمون الأوّلون، وأخلصوا أعمالكم له، واستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم.. ابدؤوا بأنفسكم، جاهدوها في الله، واحملوها على تقوى الله، واستقيموا على دين الله.. كونوا مسلمين، واعتزّوا بالإسلام، وأعلنوا اعتزازكم به، وارفعوا رؤوسكم عالية، فإنكم إذا فعلتم، كنتم خلفاء الله في الأرض.. مُرُوا بالمعروف، وانهَوْا عن المنكر، ولا تأخذكم في الحق لومة لائم.. إنَّ الإسلام**

---

(١) وجاء في شهادة أستاذنا فضيلة الشيخ محمد العوامة قصة مشابهة عن الشيخ رحمه الله.

الذي تنتسبون إليه، وتُعرفون به، يناديكم، ويستصرخ ضمائركم، فكونوا له الأنصار، وافدوه بالأموال والأرواح، كما فعل المسلمون الأولون»[1].

● أخلاقه وشمائله:

ونتحدّث في هذه النقطة عن أهمّ أخلاقه التي كان يتحلّى بها في حياته الاجتماعية مع الناس، مع أهله وأولاده وإخوانه ومحبّيه، حتى مع مخالفيه في الرأي والمنهج، ولا شك أن بين النقطة السابقة وهذه النقطة تداخلاً واتصالاً، ولكنّنا ميّزنا بين النقطتين من حيث غلبةُ الجانب الإيماني على النقطة السابقة، وغلبة الجانب الاجتماعي على هذه النقطة.

ونجمل حديثنا عن ذلك في النقاط التالية:

١ ـ صبره وحلمه وحُسن خُلقه:

إنَّ كلَّ من خالط الشيخ أحمد يشهد بما كان عليه من حسن الخُلق وكرم الطبع، وما سيأتي من الحديث ليس إلا تفصيلاً لما أكرمه الله به من أخلاق نبوية، وشمائل محببة.

أما صبره وحلمه؛ فأول ما يطالعنا من صبر الشيخ رحمه الله وجَلَده؛ صبره نفسه على المنهج الشديد الذي هداه الله إليه، من مجاهدة النفس على طاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ، والتمسّك بسنن الإسلام وآدابه، والصبر على أذى الناس في ذلك، وبخاصة إذا علمنا أن المرحلة التي عاشها الشيخ في نشأته كانت مرحلة انفصال بين فئتين من الناس، فئة المشايخ وفئة عامة المثقفين، هذا الانفصال الذي فرض عزلة على المشايخ أن يدخلوا ميادين الحياة الاجتماعية والتعليمية، وتلك العزلة جعلت الوطأة شديدة على من يريد أن يقتحم ميدان المشايخ من عامة المثقفين، أو من يحاول أن يُقحِمَ المشيخة إلى ميدان عامة المثقفين، ويعيشها في أجوائهم.

---

(١) انظر: (الدعوة إلى الإسلام وأركانها)، ص٢٢.

وبعد انطلاق الشيخ بنشاطه في الدعوة، لقي أذىً كثيراً من فئات عدّة من الناس، لأن منهجه خالف منهجهم، أو تعارض مع ما ألفوا في حياتهم، أو تعصباً لاتجاهات وانتماءات، فأعرض عنهم وصبر، وأمر إخوانه ألا يقابلوا الإساءة بمثلها.

٢ ـ عفوه وصفحه، وسلامة صدره:

إنّ المؤمن عندما يحكم صلته بربه، ويسعى جهده في مرضاته، يغطّي حاله مع الله سبحانه، من الأُنس والرضا والفرح بالله والشعور بقربه، على علاقته بالناس وعلاقة الناس به، فلا يبالي أي موقف وقفوا منه، يحرص على هدايتهم واستجابتهم، ويغتمّ لغفلتهم وإعراضهم، ويشفق عليهم أن يعرّضوا أنفسهم لغضب الله، ولا يتأثّر بإيذائهم وإساءتهم، لأنه يرى الناس مرضى، والطبيب العاقل لا يغضب من المرضى، بل يشفق عليهم ويعذرهم.

ولقد حدَّثنا الشيخ بهذه المعاني كثيراً ووجّهنا إليها، ولمسنا تحققه بها في مواقف عديدة، فمع شدّة تمسّك الشيخ بالحق وغيرته عليه، فقد كان لا يحمل في قلبه على مخالفه غلاًّ أو حقداً، لأن خلافه معه كان لله، وتلك معادلة صعبة، قلَّ مَن يستطيع التحقق بها من دعاة الإسلام.

ـ وكان كثيراً ما يتمثّل الإمام الشافعي رحمه الله، وقد ضمّنه إحدى وصاياه:

مَنْ نالَ مِنِّي أو علقتُ بذِمَّتِهْ ... سامحتُهُ للهِ رَاجي مِنَّتِهْ
كيلا أعوّقَ مؤمناً يومَ الجَزَا ... ولا أُسِيءُ محمَّداً في أُمَّتِهْ

٣ ـ جوده وكرمه:

عرف الشيخ بين أهله وإخوانه، ومحبيه ومعارفه، بالكرم والجود فهانت عليه الدنيا على قدر عظمة الآخرة في قلبه، وكان كثيراً ما يقول: «أقبح من كل قبيح صوفيّ شحيح..»، وكان يعجب مما يرى عليه بعض الأغنياء من شحّ بالمال وحرص عليه، وتلكّؤ عن الإنفاق في سبيل الله، ويقول عنهم: «**إنَّهم فقراء مهما ملكوا!**».

وكان يستقلّ ما يبذل في سبيل الدعوة وهداية الناس، وكثيراً ما يقول في مجالسه: «**لو كانت الدنيا كلّها لقمة، ووضعت في فم إنسان لهدايته، لكانت قليلة في جنب الهداية**».

ومن مظاهر جوده وكرمه، ما كان عليه من كرم الضيافة، والتوسيع على أهله وأولاده بما أحلّ الله، وكان ذلك جزءاً من منهجه التربوي، الذي سار عليه ودعا إليه.

وكل من نزل ضيفاً بالشيخ يعجب لما يرى عليه من حسن وفادته، وكرم ضيافته، ومباسطته وإكرامه، وعزمه عليه في الطعام والشراب، أخذاً بالسنّة النبويّة وهديها في ذلك.

ومن نماذج بذله وإنفاقه في سبيل الله أنه عندما جرت أعمال تجديد (جامع أبي ذر) وتوسعته، أراد أن يساهم بما يستطيع من ماله، وكان ضيّق ذات اليد يومها، فحمل (سجادة عجمية) من بيته، هي من أنفس السجاد، ولا يملك سواها، وفرشها في (جامع أبي ذر) وترك غرفة نومه جرداء، واستقبلت ذلك زوجه بالتشجيع والفرح والرضا[1].

٤ ـ تواضعه وعزّة نفسه:

عرف الشيخ بين إخوانه بشدّة تواضعه، ولين جانبه، وخفض جناحه لعباد الله.

فكان يظهر عليه ذلك في ملبسه ومشيته، وفي لين قوله وحُسن كلامه.

ومن تواضعه أنه كان يكره أن يتميّز عن إخوانه بشيء، فلا يرضى القيام له إذا دخل مجلساً من مجالسه الخاصة أو العامة، ويكره أن تُقبَّل يده مع أنه يرى أن تقبيل يد العالم والوالدين والرجل الصالح كل ذلك مكرمة وفضيلة، وما كان يرى ذلك لنفسه تواضعاً منه رحمه الله.

---

(١) وقد حدَّثني والدي رحمه الله بهذه القصة.

وكان يخدم نفسه بنفسه، ولا يرضى أن يخدمه أحد من إخوانه، فكثيراً ما كنّا نراه يحمل من السوق حاجاته، فلا نستطيع بشقّ الأنفس أن نحمل عنه، ويستشهد لنا بقول علي رضي الله عنه: **«صاحب الحاجة أحق بحملها»**.

وإذا تمكّن أحد إخوانه فحمل عنه بعض حاجاته فلا يعطيه إلا تألفاً لقلبه، ثم يكرمه بشيء مما معه، ولا يكتفي بشكره باللسان، فإذا أبى قال له: **«سايرتك فسايرني»**.

وكان يبدأ من لقيه بالسلام، وبشاشة الوجه، ولو كان شاباً صغير السنّ.

وفي الاعتكاف كان ينام بيننا، ولا يتميز عنّا بشيء.

وفي الرحلات كنت تراه أكثرنا حملاً للمتاع، وأعظمنا تحمّلاً للمشاقّ، يخدم إخوانه، ويعين أهل المطبخ في أعمالهم من طبخ الطعام، وغسيل الأواني، وتهييء الطعام، وترتيب المكان.

وكان في بيته يخدم أهله، فكثيراً ما كان يخرج إلينا وعلى يديه آثار ذلك، وهو من اتّباع السنّة، وحُسن العشرة.

وكان يخدم ضيفه بنفسه، ويقدّم له الفاكهة المقشّرة، وربّما أطعمه بيده.

٥ ـ حدَّته وغضبه، ورحمته وشفقته:

كان في الشيخ رحمه الله حِدَّة هي من طبعه وخِلقته، وهي لا تضير المؤمن ما لم يسئ إلى أحد، أو تدخله في باطل، أو تجعلـه يحيد عن الحقّ، والمؤمن سرعان ما يفيء إلى الحق إن لجّت بـه الحِدَّة، أو أخرجته عن مقتضى الحكمة، فيهدأ طبعه، وتسكن نفسه، ويعالج الموقف بالحكمة وحسن الخلق.

وأما غضبه؛ فما رأيته رحمه الله غضب لنفسه قطّ، أو انتصر لها، وإنما كان غضبه لله تعالى، ورضاه لله تعالى، ويشتدّ غضبه ويزداد على حسب عِظَمِ المنكر وخطره.

أما رحمته وشفقته؛ فلئن غلبت على الشيخ الشدّة والحزم، والقوة والعزم، ولكن ذلك لم يكن مجانباً للحكمة، أو بعيداً عن الشفقة والرحمة بعباد الله، فمن أمثلة ذلك:

فمن رحمته بأولاده وشفقته، أنه كان لا يوقظهم إلى التهجّد في الشتاء، حتى يسخّن لهم الماء للوضوء، ويدفئ لهم البيت الذي يريدون الصلاة فيه، وهذا أيضاً من أسلوبه التربوي لتحبيبهم بالطاعة، وترغيبهم بها.

ومن رحمته وشفقته، أنه كان يحثّنا دائماً على الاعتدال، وإعطاء أنفسنا حظّها من النوم والاستجمام، كيلا تملّ العمل الصالح، فتسأم وتنقطع عن عمل الخير.

ومن أجمل نماذج شفقته ورحمته: موقفه في رعايته للأيتام وتوجيههم، فقد طُلب منه أن يرسل بعض إخوانه لتوجيه طلاب **الميتم الإسلاميّ**، التابع للجمعية الخيريّة الإسلاميّة بحلب، وكان الأيتام فيه مسيّبين دون أيّ توجيه ديني أو رعاية تربوية، فكثرت فيهم المشكلات الأخلاقية، والانحرافات السلوكية، وخان بعض القائمين عليهم الأمانة، وتبع ذلك تخلّف كثير منهم دراسياً، فجمع الشيخ بعض إخوانه الذين اختارهم لهذا العمل، وكان الباحث أحدهم، وشدّد علينا في الوصية بهؤلاء الأيتام، وأكّد لنا أن مهمتنا معهم التحبّب إليهم، والتحبيب لهم بالإسلام، وهي تتعارض مع استعمال الضرب مطلقاً، وعندما رأينا واقعهم عانينا منهم مظاهر كثيرة من فساد التربية، الذي يرى غير المتمرس بالتربية أنه لا يفلح معها إلا الضرب واستعمال العصا، فحدَّثْنا الشيخَ عما رأينا وقلنا: إنَّ الضربَ أمر لا مفرَّ منه مع هؤلاء، إنَّهم أحداث جانحون، فأصرّ علينا ألاّ نفعل مهما يكن الأمر، وكان رحمه الله كلّما عرض عليه هذا الواقع، أصرّ على منع الضرب، وبعد سنوات أثمر أسلوب الشيخ التربوي مع هؤلاء اليتامى، وظهرت منهم ثلّة سويّة، مستجيبة لدين الله ودعوته، مقبلة على الخير.

وكان الشيخ يوليهم عناية خاصة، فيزورهم بين الحين والآخر،

ويوجّههم، ويقدّم لهم أنواع الحلوى والضيافة، ويهديهم بعد الحج بطاقات عن مناسك الحج ومشاعره، مما ترك في نفوسهم أطيب الأثر.

٦ ـ برّه وصلة رحمه، وخدمته لأهله ومروءته:

وكان رحمه الله بَرّاً بأهله وأولاده، برّاً بإخوانه، برّاً بطلاّب العلم والعلماء.

فأما برّه بأهله وأولاده؛ فقد كان على غاية من حُسن الخُلُق معهم، ولُطف المعشر، وسموّ المعاملة، والتكريم بما استطاع من المباحات ترويحاً عن نفوسهم، وتجديداً لنشاطهم على طاعة الله تعالى، وكان يتمثّل لذلك بما روي في الحديث: «**رحم الله والداً أعان ولدَه على برّه**»[1].

قال لي مرّة ولده الشيخ محمد أبو النصر رحمه الله: «**إنَّ برّ الوالد بنا يفوق مرّات كثيرة برّنا به، وهذا شعوري وشعور جميع الإخوة والأخوات**»، وهذا من أصدق المعايير التي تثبت نجاح الوالد في علاقته بأولاده، وأدائه لحق الأبوّة التربويّ على الوجه الأمثل.

ومن برّه بزوجه ووفائه لها أنه صبر على مرضها ثماني سنين، ولم نسمع منه خلال ذلك أي تضجّر أو تبرّم، بل كان خلالها على غاية من الإحسان والخدمة، والحثّ لأولاده على مضاعفة البرّ بأمهم، والتنافس في ذلك، وعندما تزوّج زوجه الثانية حرص ألا يبلغ هذا الأمر إلى زوجه الأولى برّاً بها، وحرصاً على خاطرها، وأكّد على أولاده وبناته ذلك.

وأمّا برّه بإخوانه؛ فقد كان يتفقدّ أحوالهم، ويرعى شؤونهم بنفسه ويتابعها، ويقدّم ما يستطيع لكشف كرباتهم، وتفريج همومهم، وكان يقدّم مساعدات دورية لبعض إخوانه المعسرين، أو الذين لا دخل لهم، ولا يدّخر وسعاً في ذلك.

---

(١) رواه أبو الشيخ بن حبان، في كتاب الثواب، من حديث عليّ وابن عمر رضي الله تعالى عنهم بسند ضعيف، كما في تخريج أحاديث الإحياء: ٢/ ٢١٧.

وكان يولي طلاب العلم الشرعي عناية خاصة، وبراً أكبر، لما يرى من إجحاف المجتمع بحقوقهم، ولما في برّهم من العون لهم على أداء رسالتهم التي فيها الخير الأعمّ للأمة.

وبلغ من برّه لطلاب العلم الشرعي أنه كان لا يقدّم على طالب العلم في تزويج بناته أحداً، وقد زوّج أكثر بناته لطلاب علم لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً.

وأما صلته لرحمه؛ فقد كان حريصاً على صلة أرحامه، يحسن إليهم ويكرمهم، ويحرص على زيارتهم في كلّ مناسبة، ودعوتهم إلى الخير وتذكيرهم.

٧ ـ حكمته وبديهته:

كان الشيخ رحمه الله حكيماً في فهمه ومنهجه، حكيماً في مواقفه وأسلوبه، وكان من حكمته في مواقفه حرصه على الشورى في معالجة أمور إخوانه، وفي علاقته مع العلماء والمشايخ.

ـ وكان حاضر البديهة، مسدّد الإجابة، وتتجلّى بديهته في إجاباته للطلاب ومناقشاته لهم، وبخاصة في إثبات وجود الله، والتعريف بحقائق الإسلام، والردّ على شبهات أعدائه، فله في ذلك مواقف كثيرة كان يحدّثنا عنها في مناسباتها.

٨ ـ ذوقه ولطفه ومزاحه وفُكاهته:

وكان رحمه الله على غاية الذوق واللطف، له ذوقه الخاصّ في كلّ أمر، ولا عجب في ذلك بعد أن عرفنا أنّ الشيخ كان ذا ذوق فنّي عالٍ في الخطّ والرسم، وذا إحساسٍ رفيعٍ بالجمال.

فكان له ذوقه الرفيع في الكتابة، يكتب على ورق غير مسطّر باستقامة في الكتابة، لا تختلف عن الكتابة على الورق المسطّر، وكان يترك هامشاً من اليمين

عريضاً، وهامشاً من الشمال أضيق، وينبّهنا إلى فعل ذلك مراعاة لجمال الشكل، وحسن المظهر.

وكانت له أذواقه في المأكل والمشرب والملبس، مع الحرص على البساطة وترك التكلّف، فكثيراً ما عدّل لأهله طريقة طبخ بعض الأنواع من المأكولات إلى طريقة أحسن.

وهو أول من أرشد الخيّاطين إلى وضع أزرار لجبّة المشايخ، كما حدّثني بذلك خيّاطه الخاصّ، وكانوا قبل ذلك يتركونها بغير أزرار، فهي مفتوحة دائماً.

وكان من ذوقه ولطفه، أنه لا يواجه أحداً بما يكره، وهذا أدب نبويّ عظيم، يستهتر به بعض الدعاة اليوم، بحجّة الجرأة في الحقّ وعدم المبالاة بالناس.

وكان كثيراً ما يأتيه الآباء، يشكون أبناءهم لشدّة تمسّكهم بدينهم، فيتلطّف بهم، ويهنّئهم على استقامة أولادهم، ويغبطهم على حُسن نشأتهم وسيرهم، ويذكّرهم أن كثيراً من الناس يضجّون من انحرافات أبنائهم، ويتمنّون استقامتهم، ولو دفعوا في ذلك الألوف المؤلفة، ويبيّن لهم أنه يوجّه الأبناء دائماً إلى البرّ بوالديهم، وحسن الطاعة لهم، وينصحهم ألا يمنعوا أولادهم من الإقبال على المسجد، وأن يشعروهم بالفرح بتدينهم، والرغبة في استزادتهم من الخير.

وأما مزاحه وفكاهته، فقد عرف الشيخ بروح الدعابة والمزاح، فكان لا يملّ جليسه من فكاهة حديثه، ومداعباته التي تدخل السرور على القلوب.

* * *

المبحث الرابع

ملامح فكره الدعويّ والتربويّ

● تشخيصه لواقع الأمة، وسبيل النهوض بها:

إنَّ كتابات الشيخ ورسائله الدعويّة المتنوّعة خير ما يعرّفنا بتشخيصه لواقع الأمّة وأسباب تخلّفها، يقول رحمه الله: «ومن أبرز أمراض هذا المجتمع:

١ ـ الجهل بالإسلام. ٢ ـ ضعف الإيمان.

٣ ـ التهاون بالمعاصي مع الإصرار ٤ ـ التقليد الأعمى.

٥ ـ فتنة النساء. ٦ ـ الرضا بالصلاح النسبي.

٧ ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨ ـ إهمال تربية البنين والبنات».

ويشرح هذه النقاط ويوضّحها، ثم يقول رحمه الله: «لكل داء دواء: هذا داء المسلمين، فما هو دواؤهم؟» فيجيب بقوله: «لا يصلحُ آخرُ هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها، فإذا أراد المسلمون النجاة سلكوا سبيل النجاة، وسبيل النجاة العودة الصادقة إلى دين الله وشرعه، بمجاهدة النفوس على التمسك بالإسلام والعمل بأحكامه، وبالصحبة الصالحة المعينة على السير في هذا الطريق القويم.. **ولا بد في ذلك من التآخي في الله، والتعاون على مرضاة الله، والتناصح في دين الله، والرجوع إلى المساجد، بيوت الله، والاستشفاء فيها من أدران المادة، وعلل المادة، وتغذية الروح بطاعة الله**.. أما القعود عن ذلك، والغرور بالأماني، من غير سعي ولا طلب، فلا يوصل إلى غاية، وليس هو من شأن العاقلين»[1].

---

(١) مقدمة الطبعة الثامنة من رسالة (سبيل الهدى والعمل)، ص٢٤.

واوضح من كلامه رحمه الله أنَّ سبيل الإصلاح أن تعود للمساجد رسالتها، وأن ينهض العلماء والدعاة من جانب المحراب، ومن أحب البقاع إلى الله، داعين إلى دين الله، يعقدون بين الناس أواصر الحبّ والأخوّة في الله، على التناصح والتعاون على مرضاة الله.

وكان يرى أن كثيراً من العاملين للإسلام في عصرنا، يقصّرون عن تمثيل الإسلام تمثيلاً كاملاً وهم يدعون إليه، أو يخطئون الطريقَ الصحيح في الدعوة والعمل، فلا تتلاءم دعوتهم مع الواقع المعاصر، أو تقصُرُ معالجتهم عن أدواء الأمة وعللها، فلا تثمر الثمرة المطلوبة، يقول رحمه الله: «نرى كثيراً ممن يدّعي الغيرةَ على الإسلام، والعملَ للإسلام، لم يمهدوا الأسباب الموصلة إلى هذه الأمنية الغالية، بل ساروا في طريق ملتوية واهمة لا تحقق لهم غاية، ولا تصل بهم إلى مقصود...»[1].

ويفصّل ذلك فيقول: «في المسلمين أفراد وجماعات، انتسبوا إلى التصوّف، فتبوؤوا صدور مجالس، والتفّ حولهم ناس، فاكتفوا بمواعظ يلقونها، ومجالس ذكر يقيمونها، فإذا فرغوا منها انفضّ الناس عنها، وخرجوا من مجالسهم كما دخلوا، لم يقوّم ذلك شيئاً من عوجهم، ولا من عوج بيوتهم، ولا من سلوك نسائهم وأولادهم، ولا من تصرفاتهم في أعمالهم ومعاملاتهم.

ظنَّ هؤلاء أنهم قاموا بواجب الدعوة إلى الإسلام بما فعلوا، وظنّ الأتباع أنهم على خير ما يمكن أن يكون عليه المسلمون اليوم، واغترّوا أنهم من جماعة فلان أو فلان.. فإذا أمروا بخير، أو نهوا عن شر، تعلّلوا بفساد الزمان، وعوج أهله، وأنَّ تيار الفساد جارف، وعذروا أنفسهم في آثام لا عذر لهم فيها.. وفي الناس آخرون، أرادوا خدمة الإسلام، فكتبوا وخطبوا، وخططوا مناهج، ورسموا الطريق إلى بعيد، ولكنهم أغفلوا أمر أنفسهم، فلم يبدؤوا بها، ولم يحملوها على العمل بالإسلام، قبل أن يكونوا دعاة إليه، وبهذا أخطؤوا

---

(١) ينظر المرجع السابق، ص١٧.

طريق الإصلاح من أول خطوة، ولم يرجعوا من عملهم بطائل»[1].

ولقد كانت **كتابات الشيخ** رحمه الله إلى مخيمات الشباب ورسائله العامة والخاصة كلها تفيض بالحديث عن هذه المعاني، وتهدف إلى تعميقها وتأصيلها، ومما جاء في بعض مجالسه ودروسه: «**هذا هو الطريق، وإذا عرف أحدُكم غيرَه، أو أقربَ منه، أو أهدى سبيلاً فليدلنا عليه، فإنَّ الدينَ النصيحة، ولا نعذره ولا نسامحه أن يسكت عن ذلك**».

أما كيف يمكن أن تتحقق العودة إلى الإسلام في حياة الأمة، وعلى مستوى المجتمع؟.

فيكاد يجمِعُ العاملون للإسلام في عصرنا، كما يتفق كبار أئمة السلف، أنه لا بد من التعاون واجتماع الكلمة على نصرة دين الله، والتقاء القلوب على الأخوّة في الله، والتعاون لإقامة شرع الله، وبلوغ مرضاته.

ولقد سمعنا من الشيخ مراراً هذه الكلمات: «**لو صلح الناس حتى كانوا بصلاح أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكانوا متفرقين، لم تقم للإسلام قائمةٌ ما لم يتعاونوا على نصرة دين الله، ويجتمعوا على تحقيق ذلك**».

لا بدّ من البدء بتربية الفرد المسلم، الذي يربَّى على قيم الإسلام وآدابه، ثم لا بدّ من تكوين الأسرة المسلمة والعناية بها، ثم السعي لإقامة المجتمع المسلم، وذلك أرقى فهم في فقه العمل للإسلام، والدعوة إليه.

ولقد كان رحمه الله يتمنّى كثيراً من دروسه العامة والخاصة أن يقومَ في كل مسجد دعوة إلى الإسلام من هذا النوع، يقوم عليها طالب علم ذو فقه شرعيّ، ووعي وبصيرة، لتأخذ المساجد دورها الرائد، وتؤدي رسالتها في جمع الشباب، ونشر الدعوة بين الناس[2].

---

(١) المرجع السابق، ص١٨.

(٢) من درس عامّ مسجّل للشيخ رحمه الله.

ويوضّح الشيخ الأسس التي يرى قيام الدعوة عليها، فيقول رحمه الله:
«. . . ومن أول خطوات الدعوة إلى الإسلام: البدء بإعداد الأفراد في أنفسهم، وذلك بتكليفهم أعمالاً ومجاهدات، ثم بمحاسبتهم عليها، ثم بإعداد الأسر الصالحة، ولا يتهيأ ذلك إلا باختيار الزوجة الصالحة لبناء البيت الصالح، ثم بتربية الأولاد تربية إسلامية صالحة، وشعور الرجال بالمسؤولية عن كل كبير وصغير، من شأن الأسر ونشأتها وسلوكها. . **ثم بدعوة الناس إلى المساجد بيوت الله، لتجديد الإيمان في قلوبهم، ودعوتهم إلى الدين، والعمل بأحكامه، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، وربطهم بمحاسبات على أعمالهم، في جوّ أخوّة إسلامية صادقة ناصحة.**

فإذا رأى المسلمون العاملون خلوّ المجتمع ممن يدعو إلى الإسلام على هذا المنهج الواضح السديد؛ نهضوا يعملون، مستعينين بالله عزَّ وجلّ، لتحقيق هذه الغاية الكريمة، وسدّ هذا الفراغ البيّن، وذهبوا يدعون إلى الإسلام دعوة عملية صادقة، قائمة على منهاج عملي واضح. . ينبغي ألا تكون دعوتهم قاصرة على جلسة وعظ فقط، يضيفونها إلى جلسات المساجد الأخرى، ولا على حلقات علمية بحتة، يجمعون الطلاب عليها، ولا على ذكر صوري لساني، ولا يحدث انقلاباً في نفوس الأفراد والجماعات، فليس ينقص الناس اليوم جلسات وعظ، ولا صفوف علم، ولا حلقات ذكر، كما تنقصهم الدعوة إلى تطبيق وعمل وإصلاح. . فإن الأمّة الإسلامية اليوم في أمسّ الحاجة إلى دعوة من هذا النوع، بعيدة عن الأهواء، وخالصة لوجه الله، لا تشوبها شائبة من مطمع دنيوي، أو غرض نفسي، أو عرض زائل.

ينبغي أن يبدأ الدعاة بأنفسهم، يقوون فيها الإيمان بالله تبارك وتعالى، ويربونها على تقوى الله عزَّ وجلّ، ويجاهدونها على امتثال أمره، واجتناب نهيه، حتى ينجوا مما وقع فيه الناس في هذا المجتمع المريض، من مخالفة لدين الله، وخروج على طاعة الله، وتلوّث بمعاصي الله. . يركّزون دعوتهم أولاً على نفوسهم، ويعتبرون هذا البدء نقطة الانطلاق للعمل الإسلامي المجدي،

فإذا استقامت لهم نفوسهم، دعوا الناسَ زرافات ووحداناً إلى سبيل الهدى والعمل، فإن استجاب لهم الناس بذلك، دعوهم إلى إصلاح أسرهم، وبصلاح الأسر يصلح المجتمع.. إنّ الأفراد الصالحين، لَبِناتٍ صالحات لبناءِ صرحِ الإسلام المجيد، وإنَّ الأُسر الصالحة دعائم قوية لبناء المجتمع الصالح، ومتى صلح المجتمع، أو غلب فيه الصلاح، تكوّن الرأي العامّ الصالح، فانتصرت الفضيلة، وانهزمت الرذيلة.. ينبغي أن يبدؤوا دعوتهم هذه، وهم مؤمنون إيماناً لا يعتريه شكّ، أنهم على حقّ إن ماتوا وإن عاشوا، وأن يعاهدوا الله عزَّ وجلّ، ألاّ يحيدوا عن دعوتهم قيد شعرة، مهما اعترضتهم مصاعب، أو مرّت بهم محن..»[1].

وكثيراً ما كان الشيخ في مجالسه العامة والخاصة، يشبّه العمل للإسلام بصخرة كبيرة لا يستطيع حملها إلا جمع كبير من الرجال الأشدّاء، والعاملون للإسلام إنما يحاولون القيام بحمل هذا العبء الكبير، فعلى قدر التآخي بينهم، والترابط بين قلوبهم، تتضافر جهودهم، وتتّحد قواهم للنهوض بالعمل، وحمل أعبائه، وإنَّ المخلص العاقل الواعي منهم هو الذي يفرح بكثرة الأعوان، وزيادة الأنصار، الذين يعينونه على حمل الأمانة، والقيام بجزء من المسؤولية، ولو لم يعملوا معه في الميدان نفسه الذي يعمل فيه، فميادين الدعوة الإسلامية كلها تصبّ في نهاية الأمر في ميدان واحد، وتعمل لغاية واحدة، وأهداف واحدة.

● **منهجه في أركان الدعوة إلى الإسلام:**

حدَّد الشيخ رحمه الله في كتابه: (أركان الدعوة إلى الإسلام) تلك الأركان بخمسة أركان؛ هي: **الإيمان، والعلم، والعمل، والذكر، والأخوّة الصادقة.**

١ ـ وفي حديثه عن الإيمان وهو ركن الدعوة الأول، يتحدث عن أثر

---

(١) الدعوة إلى الإسلام وأركانها، للشيخ أحمد رحمه الله، ص٢٢.

المعاصي والمخالفات في ضعف الإيمان وانهياره، فيقول: «. . . تهاون المسلمون اليوم، في أفرادهم، وأسرهم ومجتمعاتهم، تهاونوا بسنن الإسلام وآدابه، وأقرّ بعضهم بعضاً على ذلك، فتجرّأ ذوو النفوس الضعيفة، والقلوب المريضة على ما هو أكبر، فتركوا الفروض، ووقعوا في المحرّمات، وسكت الناس بعضهم عن بعض، ولم يأمروا بمعروف، ولم ينهوا عن منكر، فضعفت شعلة الإيمان في القلوب، واستحكمت فيها ظلمات المعاصي، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. . ضعفت شعلة الإيمان في قلوب بعضهم، ثم انطفأت، فسقطوا في فتنة الشهوات، وانتشرت فيهم فتنة الشبهات، ووقعوا في وهدة الكفر، فأنكروا الخالق، والشرائع والنبوات، والحشر والمعاد، والثواب والعقاب، والجنة والنار. . . فكم في بيوت المسلمين اليوم، وفي مجتمعاتهم مَن أسماؤهم أسماء المسلمين، وهم في عداد الكفرة والملحدين. . . !».

«إنَّ المجتمع البشريّ اليوم، أحوج ما يكون إلى دعوة الإيمان بالله تبارك وتعالى، وإن دعوة الإيمان أحوج ما تكون إلى رجال صدقوا في إيمانهم، فكونوا أولئك الدعاة الصادقين، لتكن دنياكم كلها: من دراسة علم، ومزاولة صناعة، أو تجارة، وتبوء وظيفة أو منصب، وحيازة مال أو جاه، ليكن ذلك كله قوى مصروفة لدعوة الإيمان، إذا فعلتم ذلك سعدتم في نفسكم، وأنقذتم البشرية من ظلمات الكفر وأوحال المادة، ومتاهات الضلال والشقاء. . .».

٢ ـ وفي الركن الثاني من أركان الدعوة، وهو العلم، يتحدَّث عن فضل العلم وأهميته فيقول: «. . . والتعليم خصوصية من أعظم خصوصيات الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، فقد أرسلهم الله إلى أممهم معلّمين ومرشدين، وهداة ومصلحين، وامتنّ على هذا الأمّة الأمية خاصة، ببعثة نبيها إليها معلّماً ومزكّياً، ومنقذاً من الضلال، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ولما كان نبيّنا ﷺ خاتم النبيين، وشريعته خاتمة الشرائع، كانت أمته أحقّ

الأمم أن تحمل لواء العلم على مرّ العصور والدهور، تبلّغ العالم، ولا سيما في جاهليته هذه، الشريعة الإسلامية الغرّاء، وتعلّمه سنن الهدى، وتهديه إلى سواء الصراط.

ولا عجب أن تكون للعلم هذه الفضيلة الكبرى، والخصوصية العظمى، فبالعلم يهتدي الإنسان إلى كل مجهول، وتتحقق له سعادة الدين والدنيا.. وبالعلم يستنير العقل، وتتسع آفاقه، وتعظم إدراكاته، وبه يعرف الإنسان الحقائق على وجهها الصحيح، ويميّز بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، **وبنور العلم الساطع يعطي الإنسان كل شيء حقّه، وينزله منزلته، ويبوئه مرتبته، ويقدّم الأهمّ على المهمّ.. وبهذا كله يصلح الإنسان لخلافة الله في الأرض، ويتهيأ لعمارتها على الوجه الأكمل.. فالعلم ضرورة من ضرورات الحياة السعيدة الرشيدة.**

وبالعلم يتمكّن الداعي إلى الإسلام من نشر دعوته على هدى وبصيرة.. وبذلك ترتكز دعوته على ركن متين لا يتزلزل، فهو بالعلم يكشف للناس عن جمال الإسلام ومحاسنه، ويردّ شبهات المشتبهين، ويزيل أوهام المشككين، ويقوي إيمان المؤمنين».

ويوجّه نداءه للمسلمين عامة ولشباب الدعوة خاصة، فيقول: «أخلصوا علمكم وعملكم لله تعالى، واقصدوا بهما وجه الله، وتعلّموا لتعملوا، وتفقّهوا لتتقوا، لا لدنيا تصيبونها، ولا لأموال تجمعونها، ولا لمناصب تتبوؤونها، فكلٌّ حقيرٌ فانٍ، وحطام زائل.. تعلّموا العلم لتتقربوا به من ربكم عزّ وجل، ولتنصروا دين الله في الأرض، ولتكونوا دعاة إلى الله تبارك وتعالى بالأقوال والأفعال.. **اعكفوا على طلب العلوم الشرعية، حتى تفهموا الإسلام حق الفهم، ثم ضموا إليها العلوم الكونية، وتثقفوا الثقافة العصرية، فإنها فرض كفاية، وعليها تتوقف نصرة الإسلام، إذ لا بدّ من إعداد القوة، وهذه العلوم من مقدماتها وأركانها**.. كونوا قادة في العلم، قادة في العمل، فالإسلام دين العلم والعمل، ولا ظهور ولا نجاح للمسلمين إلا بهما».

٣ ـ **وفي الركن الثالث من أركان الدعوة إلى الإسلام، وهو العمل به وتطبيق أحكامه**، يتحدَّث عن مفهوم الرخصة والعزيمة في الإسلام، ويضرب الأمثلة ثم يقول: «. . . فالأخذ بالشدة عزيمة، والأخذ باليسر رخصة، وللعزائم رجال، وللأخذ بالرخص أحوال، وفي الحديث الشريف: (إنَّ اللهَ **يحبُّ أن تؤتى رخصُه كما يحبُّ أن تؤتى عزائمُه**)[1].

فشريعة الله تعالى بين الرخصة والعزيمة، ليأخذ العبد نفسه بهذه وتلك، فلا يتتبع الرخص، فيقصر عن الكمال المنشود، ويحرم الخير الذي أراده الله تعالى لأوليائه وصفوة عباده، ولا يلتزم العزائم في جميع أحواله، فتملّ نفسه العبادة، وتحرم لذّة الطاعة، ويقعد بها العجز عن الاستمرار فيها، فيبقى في حسرة وكآبة، هذا بالنسبة لعامة المسلمين.

أما الدعاة إلى الله تبارك وتعالى وهداة خلقه إليه، فينبغي أن يأخذوا أنفسهم بالعزائم في أكثر أحوالهم، لأنهم نصبوا أنفسهم للناس قدوة، والناس لهم أتباع، وما أحوج الناس إلى أئمة يدعون بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم إلى خير، ويهدون باستقامتهم إلى استقامة. . حتى يسير الناس على منهاجهم. . ولا بقاء للإسلام الكامل إلا بأمثال هؤلاء الكاملين. . وبهذا أدّب الله تعالى خواصّ عباده، الذين نصبهم قدوة للناس وأئمة للعالم. . ».

ثم يتحدّث عن (أهمية الناحية التطبيقية في الإسلام) فيقول: «ليس الإسلام نظرية من النظريات تعرض وتناقش، فيتقبّلها من يتقبّلها، ويعرض عنها من يعرض، ويبرهن على صدقها من اقتنع بها، ويحاول دحضها من لم يقتنع. . وليس الإسلام فكرة مجرّدة، تقرّ بها العقول، أو لا تقرّ، وتؤيدها الأقوال، أو تنبذها وتردّها. . وليس الإسلام دعوى تدعى، ولا كلمة تقال. . لا، إنَّ الإسلام شريعة الله في أرضه، أنزلها على رسوله محمد ﷺ خاتم النبيين،

---

(١) رواه البخاري ومسلم، كما في المرجع نفسه، ص١١٩.

وجعلها خاتمة الشرائع وناسخة لها، واختارها لتكون صالحة لكل زمان ومكان، وأمر الله تعالى نبيّه ﷺ بتبليغها، ودعوة الناس إليها، ليستجيبوا لها، ولتكون منهاجاً لهم في حياتهم، يسيرون عليه، ويعملون بمقتضاه، فمن آمن بالإسلام شريعة عمل بها، وأذعن لها».

ثم يتحدّث عن (أهمية النموذج الإسلامي في المجتمع)، فيقول: «لا قيام للإسلام في المجتمع إلا بوجود أفراد فيه، يطبّقون الإسلام في أنفسهم، فيكونون نماذج حية، يمثّلون الإسلام تمثيلاً عملياً، يدعون إليه بأقوالهم وأفعالهم، ويمثّلونه في عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، وفي مساجدهم وأسواقهم، وفي سرّهم وعلانيتهم وسائر تصرّفاتهم.. بهذا قام الإسلام أول مرة، يوم آمن به رجال، فعملوا به، وطبّقوا أحكامه، ومثّلوه في مجتمعهم، وعلاقات أفراده، وصلات بعضهم ببعض».

ثم يقول تحت عنوان: (فقد النموذج الإسلامي في واقعنا): «لا تخلو المجتمعات الإسلامية اليوم في أقطار المسلمين من أفراد يعملون بالإسلام، ويطبقونه في أنفسهم تطبيقاً صالحاً؛ إلاّ أنَّ هؤلاء الأفراد مغمورون في مجتمعاتهم، ليس لهم فيها بروز ولا ظهور.. فلا بدّ إذن من اجتماع هؤلاء العاملين، ليؤلفوا نواة صالحة صادقة للمجتمع الإسلامي المنتظر».

ويخلص إلى ضرورة الجانب العمليّ في الدعوة، فيقول: «**قيام جماعة على هذا الأساس واجب**: إذا رأى المسلمون انهيار الإسلام في مجتمعهم، وما وصل إليه من الغربة، ورأوا الهوة العميقة التي انحدر إليها المسلمون بسبب تخلّفهم عن الإسلام: رأوا من الواجب المحتم أن يعملوا على إيجاد النماذج الإسلامية الصالحة في المجتمع كأفراد، ثم تكوينها نموذجاً إسلامياً كجماعة.

وإنما يتهيأ ذلك على سواعد رجال آمنوا بالله وبشريعة الله، وصدقوا في تكوين أنفسهم، وتربيتها على الإسلام الكامل، وتضافروا على الخير، وتعاونوا على الحق، إلى أن يتألف منهم مجتمع صالح، يمثّل القدوة العملية المفقودة، وما ذلك على الله بعزيز».

٤ ـ ويتحدَّث في الركن الرابع من أركان الدعوة إلى الإسلام، وهو (الذكر) عن أهمية الجانب الروحي في حياة الإنسان، واهتمام الإسلام به فيقول: «. . . اهتمَّ الإسلام بالروح اهتماماً كبيراً، وحثّ على سلامتها من أدران المادة، وأوصاف البهيمة، وهيأ لها غذاءً روحياً، يحفظ بقاءها، ويبعث فيه القوة والصفاء، والطهارة والإشراق، فكما أن الجسد إذا انقطع عنه غذاؤه، ذبل وضعف، وانحلّت قواه، وصار إلى هلاك، فكذلك الروح إذا انقطع عنها غذاؤها الروحي، كان مآلها الذبول والاضمحلال، وصارت إلى موت معنوي. . .».

وعن أهمية الذكر للمسلم يقول: «وأنت بعد هذا إذا سمعت قول الرسول الكريم ﷺ: **(مَثَلُ الذي يذكر ربّه، والذي لا يذكره مثل الحيّ والميت)**[(١)]، عرفت أن الذكر دعامة قوية يقوم عليها بناء الدين كله، ينبئ عن هذا قول الله جلّ ذكره: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فلا عجب إذن أن يشبّه النبي ﷺ الذاكر، وقد استنار قلبه بنور المعرفة، وتحلّى قالبه بحلة الطاعة، بالحي الذي تزين ظاهره ببهجة الحياة، وباطنه بنور العلم والإدراك، وأن يشبّه الغافل، وقد قسا قلبه، وأظلمت نفسه بالجثة الهامدة، تعطّل ظاهرها، وأظلم باطنها، فلحقت بعالم الجماد».

وتحت عنوان (الذكر والدعوة إلى الإسلام) يقول: «الدعاة إلى الله تعالى لا بدّ لهم من عُددٍ، وأقوى عُددهم قلوبٌ عامرة بالإيمان، مشرقة بأنوار اليقين، دائمة الصلة بالله تبارك وتعالى، ويعبّر عن هذه القلوب ألسنة ناطقة بالحقّ داعية إليه. . فإذا عمرت قلوب الدعاة بذكر الله تعالى، وأشرقت بالإيمان واليقين، عبَّرت عنها الألسن بأوضح بيان، ونطقت بالحكمة والعرفان، **فكلّ كلام يبرز، وعليه كسوة القلب الذي برز منه**. . وقديماً قيل: **(ما خرج من القلبِ وقعَ في القلبِ، وما خرجَ من اللسانِ لا يجاوزُ الآذان)**.

---

(١) رواه البخاري: ١١/ ١٧٥ و١٧٧؛ ومسلم (٧٧٩).

والذكر ينوّر القلوب، ويجلو البصائر، فإذا تنوَّرت قلوب الدعاة إلى الله تعالى، وانجلت بصائرهم، دعوا إلى الله على بصيرة، وأمنوا من الزلل: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

والذكر أول ما يجب أن يدعو إليه الدعاة، لأن القلوب الغافلة ميتة، لا تسمع، ولا تبصر، ولا تحس، ولا تعي، فأصحابها كالأنعام أو الجماد.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فإذا حييت قلوب المدعوين بذكر الله، أصاخت آذانهم لدعوة الحق، وانشرحت صدورهم، وتفتحت قلوبهم، واستجابت إليها نفوسهم..».

ثم يوجه الشيخ رحمه الله نداءه إلى المسلمين عامة، والدعاة العاملين خاصة فيقول:

«اذكروا الله تعالى في جميع أحوالكم، حتى تكونوا من أوليائه، الذين يتولاّهم ويرعاهم، ولا يكلهم إلى غيره طرفة عين، فإذا تولاكم ورعاكم كنتم على هدى في جميع حركاتكم وسكناتكم.. ومن كان كذلك فهو مؤيد منصور، محفوف بالعناية والرعاية، سائر على هدىً، داعٍ إلى الله على بصيرة، وله النصر عاجلاً وآجلاً.. أديموا ذكر الله، يمدّكم بالثبات على الحق، والصبر على جفاء الخلق، فذاكر الله عزَّ وجلّ موصول بالله، مستأنس به، لا يركن إلى غيره، ولا يرجو إلا إياه، ولا يخاف إلا منه، فخير زاد الدعاة إلى الله دوام ذكر الله.. أسأل الله تعالى أن يجعلني ومن يقرأ كلمتي هذه من الذاكرين، وأن يلحقنا بالصالحين، إنه سميع مجيب».

٥ ـ وفي الركن الخامس من أركان الدعوة إلى الإسلام، وهو (الأخوة الصادقة)، يقول في بيان أهميتها: «... وأقوى روابط الأخوة رابطة الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذه أخوّة إيمانية

عامة، وقد يكون بين المؤمنين أخوة خاصة، فيتآخى جماعة في الله، يحبّ بعضهم بعضاً، يسود أخوّتهم الإخلاص الأتمّ، والوفاء الأكمل، فيتعاملون بالإيثار، ويتفادون بالأموال والأرواح، وهذه أسمى مراتب الأخوّة: لما هاجر المسلمون الأوّلون إلى المدينة تنافس فيهم الأنصار.. فما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة.. ثم آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ووثّق روابط الأخوّة بينهم، حتى تنازل الأخ الأنصاري لأخيه المهاجر عن نصف ماله، وآثره على نفسه فيما يحبّ».

والأخوّة في الله هي الصحبة الصالحة، التي تعدّ ضرورة ملحّة من ضرورات الاجتماع الإسلامي الرشيد؛ «فكم من ضعيف متحيّر، متردّد متشكّك، صحب مؤمناً قويّ الإيمان، صادق اليقين، فانتقلت إليه عدوى الخير، وتخلّص من ظلمات الشكّ والارتياب، ورسخ في قلبه الإيمان واليقين، وما انتشرت دعوة الإيمان منذ أول أمرها، إلاّ بصحبة أهل الإيمان...».

«.. وكما أن عدوى الخير تسري، فكذلك عدوى الشرّ، فمن صحب أهل المعاصي والغفلات، أوصلته صحبتهم إلى ما وصلوا إليه من المعاصي والمخالفات، التي تضعف الإيمان، ثمّ توصل إلى الكفر البواح، وعاقبة ذلك الندامة يوم القيامة».

ويتحدّث عن خطر وهن الأخوّة الصالحة على المجتمع، فيقول: «إذا انقطعت أواصر الأخوّة في مجتمع، وتفككت روابط المحبة بين أفراده، ظهرت الأثرة البغيضة، وسعى الفرد في شأن نفسه، وألقى بمصلحة المجموع عُرْض الحائط، فامتلأت الصدور بالأحقاد، وفشت بين الناس الشحناء، واشتعلت نار الحسد في القلوب، وظلم القوي الضعيف، وفسدت ذات البين.. وإذا حصل هذا الوهن، لم يعد يربط الناس بعضهم ببعض إلاّ مصالح شخصية، لا تلبث أن تنقضي، لأنها سريعة التقلّب، لا دوام لها ولا استمرار.. **وقد تربط بين الناس حينئذٍ علاقات غير صحيحة، من حزبية ضالّة عمياء، أو عصبية لمبادئ منحرفة وأهواء، أو مريدية مغفلة جامدة، لا تمتّ إلى التصوّف الصادق بصلة، ولا تهتدي بهدي السلف الصالح الرشيد...**».

وهذا الكلام صريح في بيان موقف الشيخ من المريدية العمياء، التي يدعو إليها بعض المتصوفة، بصورة تتعارض مع هدي الإسلام وحقائقه، وكان لها أثر كبير في انحراف روابط المسلمين، وأورثتهم روح التبعية المعطّلة لحقّ النصيحة، التي هي لبّ الدين وروحه. . وإنما الأخوّة الإسلامية الناصحة هي المبدأ والمنهج، الذي ينبغي أن يحكم روابط المسلمين وعلاقاتهم. . .

وتحت عنوان (الأخـوة في الله آصرة وثيقة بين الدعاة إلى الله عزَّ وجلّ) يقول:

«الدعوة إلى الإسلام عمل جليل، اختار الله تعالى له في أول الأمر صفوة الخلق رسوله محمداً ﷺ، والإسلام اليوم عاد إلى غربته الأولى، والدعوة إليه أحوج ما تكون إلى رجال أولي عزم وقوّة، ولا تتحقق هذه القوة إلا في أنصار حق ودعاة صدق، ربطت بينهم رابطة أخوة صادقة. .

فعلى المسلمين أن يعملوا على تحقيق هذه الأخوّة فيما بينهم، ليصلوا في دعوتهم إلى الغاية المرجوّة، والله ولي التوفيق».

● أسلوبه في الدعوة والوسائل العملية للتربية والتكوين:

اتخذ الشيخ رحمه الله لتحقيق فكرته الدعوية ومنهجه التربوي، ما يناسب ذلك من الأساليب التربوية، والوسائل العملية، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١ ـ **الوصايا والمحاسبة عليها**: وتشمل الوصايا: السنن والآداب، والفضائل الإسلامية التي يتساهل كثير من المسلمين في الالتزام بها، على مستوى الفرد أو الأسرة.

وهي تتنوَّع على حسب السنّ والثقافة بين مستوى وآخر من مستويات الإخوة، وتعدّل كلَّ مستوى بين الحين والآخر، ويزاد عليها، وينقص منها على حسب المصلحة.

وكان يكلّف كل أخ من إخوانه أن يجلس يومياً جلسةً، يحاسب فيها نفسه على أعماله كلها، وعلى هذه الوصايا بشكل خاصّ، ويسجّل في ورقة خاصّة مدى إخلاله أو التزامه بها.

ويتابع الأخ الموجّه الإخوة بهذه الوصايا، ويحثّهم عليها، ويذكّرهم بها بين الحين والآخر، ويشجّع الملتزمين بها، وينبّه المقصّرين، وكان الشيخ يعدّ هذا الأسلوب ترجمةً عمليةً لمبدأ التواصي بالحق والتواصي بالصبر، الذي جعله الله تعالى شعار المؤمنين الناجين من الخسران.

وقد أدّى هذا الأسلوب التربوي الدعوي ثمرات طيّبة في رفع مستوى كثير من الإخوة، كما استفاد منه كثير من العاملين للإسلام، وانتشر في صفوف عدة تجمّعات إسلامية، رأت فيه أسلوباً ناجحاً في تربية الشباب ورفع مستواهم.

٢ ـ **البرنامج اليومي للفرد والأسرة:** ويتبع الوصايا: البرنامج اليومي للفرد والأسرة، وهو برنامج يشمل أعمال اليوم والليلة، يعين الأخ وأسرته على تنظيم حياتهم، والاستفادة من أوقاتهم، وملء الفراغ بالنافع المفيد، ويوضّح ما ينبغي القيام به من أعمال إسلامية يومية، لبناء الشخصية الإسلامية المتوازنة، ومتابعة الأسرة ورعايتها في جميع الجوانب.

٣ ـ **الدروس الشرعية واللقاءات التربوية والدعوية الخاصة والعامة، واللقاءات المفتوحة:** ولكلٍّ منها منهاجه العلميّ والتربوي المناسب.

وقد كان الشيخ رحمه الله يتعاون في هذا المجال مع أي طالب علم، أو صاحب اختصاص يثق بدينه وعلمه، فيكلّفه بتدريس بعض العلوم الشرعية لبعض الشباب.

كما كان للشيخ لقاء أسبوعي رتيب مع عدّة حلقات متقاربة من إخوانه، أملى فيها علينا أمالي على شكل وصايا، وسمّاها: (**تذكير وتحذير**)[١]، وهي

---

(١) وقد استخرج منها الباحث أساليب الشيخ التربوية، وأهم المفاهيم الدعوية، =

تمثّل صورة من فكره الدعوي، ومنهجه التربوي.

٤ ـ الزيارات الأخويـة الهادفة؛ القائمة على الحبّ في الله، والتناصح وتقوية أواصر الأخوّة، والتعاون على البرّ والتقوى: ولا شكّ أنّ الحبّ في الله تعالى، والتزاور فيه من أعظم القربات إلى الله سبحانه، وأحبّ الأعمال وأزكاها عنده، ولكن بعض الناس تنقلب الأخوة في الله في حياتهم إلى علاقة دنيوية، تقوم على المجاملـة، وتبتعد عن التنـاصح، والتعاون على البِـرّ والتقوى، وتحكمها عادات الناس وأعرافهم، وبخاصة إذا دخلتها الأسباب الدنيوية من المصاهرة، أو التعامل المادي كالتجارة ونحوها، فتضعف المعاني الإيمانية، وتغلب الصلة المادية، وتنسى حقوق الأخوة وواجباتها.

ومن هنا كان الشيخ يؤكد في توجيهاته أن تبقى علاقات الأخوة متميزة خالصة، قائمة على الحبّ في الله، وأداء الحقوق الأخوية، بعيدة عن العلاقات الدنيوية ما أمكن، وكتب لنا في ذلك كلمة توجيهية بعنوان: (ضوابط العلاقات المادية بين الإخوة).

٥ ـ خروج يوم هادف: وتجتمع في هذا الخروج عدّة حلقات متقاربة في المستوى، ويكون إلى ضاحية من الضواحي، من بعد صلاة الفجر إلى المساء، وقد يكون فيه إحياء شيء من الليل بالعبادة وتدارس العلم، ويكون له برنامج يملأ الوقت كله بما ينفع ويفيد، مما يقوّي أواصر الأخوّة بين الشباب، ويوثق علاقاتهم.

٦ ـ الاعتكاف والإحياءات: حرص الشيخ رحمه الله على إحياء سـنة الاعتكاف كل عام، فكان يعتكف في (جامع أبي ذر) ويحثّ إخوانه على ذلك، ولو بشـكل جزئي على حسب ظروف كل أخ، وكان يضع للاعتكاف برنامجاً يومياً، يعلنه للإخوة، ويشارك في أكثر فقراته.

= وجعلها في رسالة صدرت قريباً بعنوان: (أساليب تربوية، ومفاهيم دعوية من حياة الشيخ أحمد رحمه الله).

وكان الاعتكاف عدا عما فيه من العبادة، فإن فيه حياة جماعية كاملة، يتدرّب فيها الإخوة على التعامل الأخوي، وأداء حقوق الأخوّة، وتظهر فيه أخلاق الإخوة من الخدمة والتعاون، والحبّ والإيثار، والبذل والتناصح.

وكانت الإحياءات تقام بين الحين والآخر، لمناسبة أو غير مناسبة، وغالباً ما يكون فيها سحور، ثم صيام اليوم الذي يليها، ويغلب عليها طابع العبادة، من صلاة أو ذكر أو تلاوة القرآن الكريم وتدارسٍ له، وتطرح فيها موضوعات فكرية ودعوية للحوار والمناقشة.

٧ ـ **الدورات الصيفية الشرعية والثقافية**: حرص الشيخ رحمه الله على استغلال أوقات الصيف لدى الشباب، وكان أكثرهم من طلاب المدارس، فأقام لهم دورات صيفية مكثّفة، في العلوم الشرعية، التي يحتاجها الشباب: في الفقه والتوحيد، والتجويد والتفسير، والحديث والسيرة النبوية، وقرّر لهم مناهج مختارة لحفظ ما تيسّر من القرآن الكريم، وتعاون مع بعض طلاّب العلم الشرعيّ لتدريس هذه العلوم، ووضع لهم المناهج المناسبة، كما نظّم لهم مواعيد الدروس في المسجد على غرار الأساليب المدرسية، فكانت الدروس تبدأ من بعد العصر وتنتهي بعد العشاء بساعتين كل يوم، ومنها ما يكون بعد الفجر.

كما كان يختار للشباب في صيف كلّ عام بعض الكتب الثقافية التي يثق بكتّابها، ويرى أنهم يحملون فكراً شمولياً متوازناً، بعيداً عن الإفراط أو التفريط، ويطالب الشباب بدراستها وتلخيصها، ثم يُختبرون بها، وتقدّم الجوائز للفائزين تشجيعاً لهم وترغيباً.

٨ ـ **المخيمات التربوية السنوية**: بدأت المخيمات التربوية السنوية مع قيام الجماعة ونشأتها[1]، وفكرتها قريبة من (الكشافة) أو (الجوالة) وتكاد

---

(١) بلغ عدد المخيّمات التي أُقيمت في حياة الشيخ أربعة عشر مخيماً، وقد وجَّه إلى كلّ مخيم كلمة توجيهيّة مكتوبة، تبلغ كلّ واحدة منها عشر صفحات أو أكثر، ولو جمعت لكان منها كتاب دعويّ وتربوي مفيد، ولا ندري ما فعلت بها الأيام.

تكون صورة مصغَّرة عنها إلاّ أنها ذات منهج إسـلاميّ، وتتجلى أهميّتهـا في تجسيد أفكار الدعوة ومفاهيمها، فاشتراك الأخ فيها يختصر مرحلة كبيرة من التربية والبناء، لأنه يعيش فيها حياة إسلامية بجميع جوانب حياته وعلاقاته.

وكان برنامجها اليومي يبدأ من صلاة التهجّد، وينتهي بعد صلاة العشاء بساعتين، ويشمل: صلاة التهجد، ثم صلاة الفجر بجماعة، وبعض الأوراد والأذكار النبوية، ثم تلاوة القرآن الكريم، ثم درس الرياضة الصباحي، وبعده صلاة الضحى، والفطور، ثم نشاطات متنوعة، وفيها ندوات فكرية وتربوية، ثم صلاة الظهر والغداء بعدها، وبعد صلاة العصر إلقاء بعض الكلمات الدعويّة والتربوية، ثم مباريات رياضية، ثم صلاة المغرب وجلسة أسئلة فقهية، ثم العشاء وصلاة العشاء والنوم.

وكان الشيخ رحمه الله يولي الخروج إلى هذه المخيمات أهمية كبيرة، ولا يعذر أي أخ في التخلّف عنها، لما يرى لها من أهداف تربوية، وثمرات إيمانية، وكان يتحمّل التكاليف المادية عن بعض الإخوة الذين لا مورد لهم، حرصاً عليهم ألا يفوتهم هذا الخير.

ولقد لمس الإخوة آثار هذه المخيمات وثمارها في أنفسهم، حتى شهد كثير منهم أن الصفاء والخشوع الذي حصل لهم فيها لم يروا مثله في حياتهم، حتى ولا في رحلاتهم إلى الحج والعمرة.

● مصـادر منهجـه التربويّ وملامحـه:

يتمثّل منهج الشيخ التربوي في كتابه: **(منهاج التربية الصالحة)**، ومن خلال دراسة هذا الكتاب يتّضح لنا أن مصادره فيما كتب تتجلّى بما يلي:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ السنّة النبوية المطهّرة، والسيرة العطرة.

٣ ـ فقه السـلف الصالح وسيرتهم وآثارهم التربوية، وما أثر عنهم من أقوال ومواقف.

فهو يتتبع تتبعاً دقيقاً ما جاء في الكتاب الكريم، والسنّة المطهّرة والسيرة النبوية العطرة لإثبات أي مبدأ من مبادئ التربية الإسلامية، ولو كان فرعيّاً، وربطه بدليله الشرعي[1].

كما يتتبع أقوال السلف ومواقفهم التربوية، ومواعظهم ووصاياهم، وكان شديد التأثّر بها في حياته لكثرة مطالعته لسيرهم وتراجمهم، مما انعكس على تكوينه الفكري ومنهجه التربوي.

وممن تأثر بآرائهم في هذا المجال على وجه الخصوص: الإمام الغزالي رحمه الله، فهو من كبار أعلام التربية الإسلامية، وله آراؤه الدقيقة في مبادئ التربية وأصولها وأساليبها[2].

وأما ملامح منهجه التربويّ: فيمكننا أن نستخلص ملامحه وسماته العامّة من كتابه المذكور نفسه، ونجملها في النقاط التالية:

١ ـ اعتزاز المؤلف بمنهج التربية الإسلامية، وتحذيره من التأثر بالنظريات الغربية، فهي نظريات مادية لا دينية، وبيان خطرها على عقيدة الأمة، وشخصيتها وكيانها[3].

٢ ـ واقعية المنهج الذي يعرضه، ونقده للواقع التربوي الذي يراه فيما حوله، ومناقشته لبعض المفاهيم الشائعة الخارجة عن المنهج الصحيح في التربية[4].

---

(١) ينظر على سبيل المثال: (منهاج التربية الصالحة) للشيخ أحمد عز الدين البيانوني، ص١٢، ٣٤، ٣٥، ٧٧.
(٢) وقد أشار رحمه الله إلى شدّة تأثّره بالإمام الغزالي في سيرته الذاتية: (مراحل حياتي بقلمي).
(٣) ينظر: المرجع السابق، ص٢١.
(٤) ينظر: المرجع السابق، ص٧٥.

٣ ـ تحذيره من الدعوة إلى تحديد النسل، وبيان أنها فكرة مغرضة، تتعارض مع دعوة الإسلام إلى إكثار النسل الصالح، وهي أثر من آثار طغيان المادية في هذا العصر، وليست من هدي الإسلام في شيء، ولا تلتقي مع إيمان المؤمن بقدر الله ورزقه المقسوم لعباده(١).

٤ ـ شمول منهجه التربوي لأصول الإسلام وحقائقه، وآدابه وفضائله، واعتناؤه بتربية الجسم والعقل والروح تربية متوازنة، وغرسه لحقائق الإيمان ومكارم الأخلاق(٢).

٥ ـ شمول مفهوم التربية الإسلامية لما قبل الزواج، فالذي يريد أن يرزق الأولاد الصالحين البررة عليه أن يختار الزوجة الصالحة، ذات الأصل الطيب والنشأة المستقيمة، وتأكيده على أثر الوالدين المؤمنين، والمعلمين الصالحين في صلاح الولد واستقامة سلوكه(٣).

٦ ـ اهتمامه بأثر الأم في تربية الطفولة المبكرة، وتحذيره من خطأ إهمال كثير من الآباء والأمهات لذلك، وإنما يتقصرن على العناية الجسدية بالأولاد وإدارة البيت وخدمته(٤).

٧ ـ الحرص على اتّباع السنّة النبوية في كل مرحلة من مراحل حياة الناشئ وتربيته، لتكون نشأتُه منذ الأيام الأولى صالحةً، والأخذ بهذه الآداب في تربية الوالدين أيضاً على آداب الإسلام وهديه، وبذلك تكون التربية الإسلامية مناخاً تصطبغ به حياة الأسرة كلها(٥).

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص٢٢.
(٢) تلاحظ المقدّمات في المرجع السابق من ص٧٦ وما بعد.
(٣) ينظر: المرجع السابق، ص٧٦.
(٤) المرجع السابق نفسه.
(٥) والمنهج المعروض كلّه في المرجع السابق يتتبّع آداب السنّة، ويدعو إلى =

٨ ـ اهتمامه بنشأة العادات في الإنسان منذ الصغر، فلا بد للإنسان من عادات، يعتادها ويدرج عليها، وخير ما يعتاده ما كان موافقاً لهدي النبوة، وعندما تغرس الآداب الإسلامية في نفس الناشئ، ويشبّ عليها ويعتادها، فإنه لا يرى في التزامه بها بعد ذلك أية مشقة أو حرج.

٩ ـ تحذيره من العادات الجاهلية الشائعة بين الناس وتنديده بها، وبيان سخفها وخطرها على عقيدة الطفل وعقليته، واستقامة نشأته وسلامة تفكيره[١].

١٠ ـ تأكيده على ضرورة تربية الطفل منذ الصغر على الطاعة، وتعويده على مخالفة هواه، تدريباً له على امتثال أوامر الله تعالى، والبعد عن معصيته، ففي التربية على طاعة الوالدين مران للطفل على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ[٢].

١١ ـ تنبيهه الوالدين والمربين إلى وجوب أمر الطفل ونهيه بكل ما يجب عليه أن يفعله أو يبتعد عنه بعد بلوغه، كالأمر بستر العورة، وأمر الفتاة بالحجاب، والبعد عن الاختلاط بالرجال الأجانب، ونهي الغلام عن الاختلاط بالنساء، ولبس الذهب والحرير[٣].

١٢ ـ تحذيره من اختلاف الأبوين أو المربين في منهاج التربية، وتأكيده على ضرورة الاتفاق لينشأ الولد نشأة سويّة، وبيانه لخطر تناقض سلوك الآباء والأمهات والمربّين في التربية، يأمر المربي بالصدق ويكذب، وينهى عن التدخين ويدخن، أو يأمر بالشيء مرة، وبضده مرة أخرى من دون سبب معقول، أو يأذن الأب بشيء، وتنهى الأم عنه في آن واحد، فيتبلبل الطفل في

= غرسها خطوة خطوة.

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق نفسه.

معرفة الخير من الشرّ، ويحار فيمن يقدّم طاعته منهما، وقد يجرّه ذلك إلى الانطلاق مع هواه، والتمرّد عن طاعة الوالدين كليهما، فتسقط مكانتهما من نفسه، ويقع في العقوق[1].

١٣ ـ دعوته للآباء والأمهات أن يكونوا قدوة صالحة لأولادهم، وأسوة حسنة في الأقوال والأفعال والأخلاق، لأن كلّ ما يقال أو يفعل أمام الطفل إنما هو جزء من تربيته[2].

١٤ ـ دعوته إلى أن يكون للناشئ مثل أعلى يتطلّع إليه، ويقتدي به، لينشأ محبّاً للكمال، متطلّعاً إلى رفيع الخصال، عالي الهمة، حريصاً على معالي الأمور في كل شأن[3].

١٥ ـ تحذيره من الفتنة بالأولاد، والانحراف معهم في طريق الشر والفساد إن انحرفوا عن سبيل الله، فربّ أولاد كانوا وبالاً على والديهم في الدنيا والآخرة، وربّ أولاد كانوا سبباً لهداية والديهم أو زيادة استقامتهم[4].

وقد كانت أسرة الشيخ هي الميدان العمليّ الأول لتطبيق هذا المنهج، ثمّ كانت الجماعة التي أنشأها هي الميدان الثاني، كما كانت علاقاته التعليمية والاجتماعية، كلّها تترجم هذا المنهج، وتتوخّى خطاه.

● خصائص فكره الدعويّ والتربويّ:

امتازت شخصيّة الشيخ أحمد رحمه الله بأصالة الفكر، واستقلال الرأي، والبعد عن التبعية لأحد من دون حجّة أو دليل.

ويستطيع الناظر أن يجد النماذج المتعدّدة على ذلك من خلال استعراض

---

(١) المرجع السابق نفسه.
(٢) ينظر المرجع السابق، ص٢١ وفي مواطن أخرى من الكتاب.
(٣) المرجع السابق، ص٧٦.
(٤) المرجع السابق نفسه.

أيّ كتـاب من كتب الشيخ ومؤلّفاته، كما يمكننا أن نلخّص تلك الخصائص لفكره ومنهجه، ونجملها في النقاط التالية:

١ ـ الوضوح الفكري التامّ في أسلوبه، وفي طريقة عرضه لأفكاره، وفي اختياره العبارة السهلة التي تلائم العاميّ المحدود العلم، ولا تنزل عن مستوى المثقف ثقافة جيدة.

٢ ـ تقريب المفاهيم، وتيسير العلوم وحُسن عرضها بما يتلاءم مع الجيل المعاصر، وقدرته على الفهم والتقبّل، بل والانجذاب إلى العلوم الإسلامية، والحرص على الاغتراف من معينها.

ولعلّ هذا كان السرّ وراء اختيار الشيخ ليشارك في وضع منـاهج مادّة التربية الإسلامية في بعض المراحل الدراسية.

٣ ـ إحياء منهج السلف في الطاعة والاتباع في كل شأن من شؤون الحياة. فمنهج السلف ليس عقيدة فحسب، بل هو عقيدة نقلية خالصة صافية، وعبادة مخبتة، والتزام بحقائق الدين ومبادئه وفضائله وآدابه، وتأسٍّ واتّباع لهدي النبـوّة في كلّ شـيء، وهو منهج دعويّ متميّز، يحرص على اجتماع الكلمة، والتأليف بين القلوب[1].

٤ ـ إحياء المفاهيم الإسلامية، والحقائق الإيمانية، وتصحيح ما علق بها من أوهام الناس، وأخطائهم وانحرافاتهم، وحثّهم على العمل بها، ومن هذه المفاهيم:

أ ـ مفهوم الإسلام وحقيقته، ومفهوم الطاعة والاتباع[2].

---

(١) ينظر شدّة تقديره للسلف في كتابه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص١٠١، ١٣٧، ١٧٢؛ وفي كتابه: الدعوة إلى الإسلام وأركانها، ص٥١ ـ ٦٠.

(٢) ينظر: الدعوة إلى الإسلام وأركانها، ص١٠٨ ـ ١٣٥؛ ومقدّمة سبل الهدى والعمل، الطبعة الثامنة فما بعد.

ب ـ مفهوم التوكّل على الله تعالى.

جـ ـ مفهوم الأخوّة الإسلامية.

د ـ مفهوم التناصح بين المسلمين[1].

هـ ـ مفهوم السنّة النبوية، وضرورة الأخذ بها، وخطر الاستهتار بها أو إهمالها.

٥ ـ إحياء رسالة المسجد في التربية والدعوة، ونشر العلم وإصلاح الأمة[2].

٦ ـ إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالحكمة والموعظة الحسنة، على مستوى الفرد، وعلى مستوى المجتمع[3].

٧ ـ الاهتمام بربط الدعوة بالعلم الشرعي، وتنشيط طلاب العلم لينطلقوا بالدعوة في كل الميادين، والتحذير من بُعْد الدعوة إلى الله عن العلم الشرعيّ، وضوابطه الشرعية والمنهجيّة[4].

٨ ـ تأصيل المنهج التربوي العملي في بناء الفرد والأسرة، وفي الانطلاق بالدعوة، المستوحى من الكتاب والسنة، ووقائع السيرة النبوية، وسيرة السلف الصالح واجتهاداتهم.

٩ ـ الاتّزان والاعتدال، والشمولية في الفهم والعمل، والحرص على

---

(١) ينظر: الدعوة إلى الإسلام وأركانها، ص١٦٧ ـ ١٩١.

(٢) ينظر: الدعوة إلى الإسلام وأركانها، ص١٩، ٦٥ ـ ١٠٠؛ وأمالي الشيخ في تذكير وتحذير، ص٤٦.

(٣) ينظر: كتاب الشيخ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وأمالي الشيخ في تذكير وتحذير، ص٦٨.

(٤) ينظر: كتاب الشيخ من محاسن الإسلام، أول الكتاب، وص٧٨ ـ ١٦٠؛ ومنهاج التربية الصالحة.

وسطية الإسلام في كلّ جانب من جوانب الحياة بعيداً عن التفلُّت أو التطرّف[1].

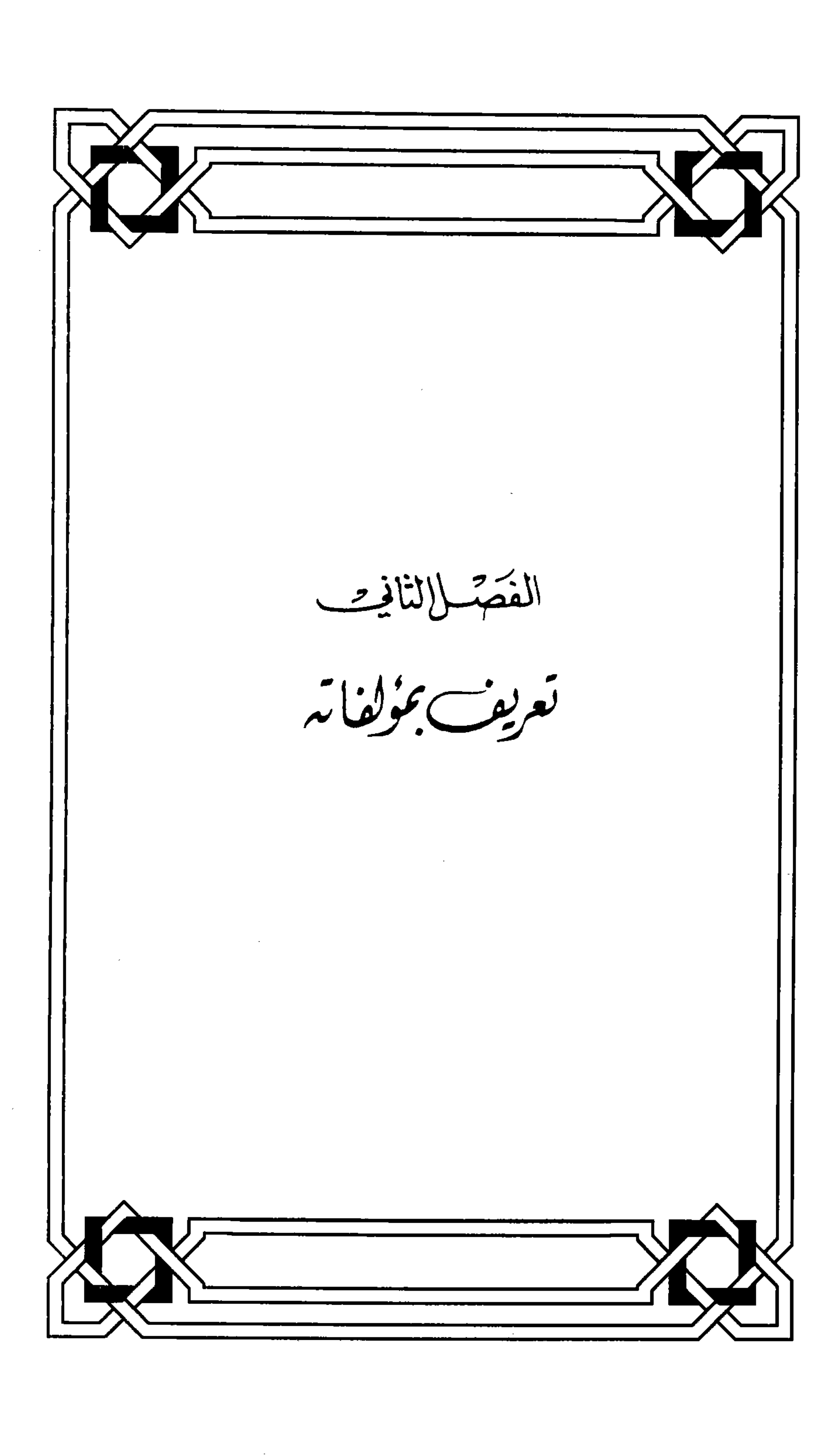
١٠ ـ الانطلاق من منهج دعوي واضح الأهداف والمعالم، بعيد عن مواقف ردّة الفعل المرتجلة، أو الاشتغال بمعارك بين العاملين للإسلام جانبية، أو الدخول في صراع سياسي، يبعد الناس عن الدعوة، أو يعطّل مسيرتها[2].

* * *

---

(١) ينظر ما سبق من المراجع.

(٢) ينظر التعريف بجماعة الهدى، ففيه عرض واضح لمنهج الجماعة الفكريّ والتربويّ.



الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته



تمهيد

أسلوبه في التأليف وخصائص كتاباته ومزاياها

لا شكّ أنَّ هدف الكاتب مما يكتب، ودوافعه التي تلحّ عليه بالكتابة، والشريحة التي يريد أن يخاطبها.. كلُّ ذلك يحدّد له الأسلوبَ الذي يكتب به ويتوخّاه..

وما كلُّ من أراد أسلوباً أحسنه، وقدر عليه، ووُفِّق له. ولقد كان الشيخ رحمه الله من العلماء القلائل، الذين أسهموا في سدّ الفجوة بين الجيل الغابر والجيل المعاصر، الذي لم يعد يتقبّلُ الأساليبَ القديمة في العرض والتأليف، وأصبحت الكتبُ القديمةُ تعيَّرُ من قِبَل كثير من الناس أنّها الكتب الصفراء، وفيها كثير ممّا لا يدخلُ تحت اهتمامات الناس في هذا العصر، بل وفيها أخطاء علميّة قد اكتشف في هذا العصر أنّها لم تكن مستندة إلى حقائق علمية، وإنّما إلى مقولات شائعة، كانت مبلغ الناسّ من العلم في تلك العصور، ومع ذلك فلم يستطع كثير من العلماء والمشايخ التحرّر منها، أو الجرأةَ على مخالفتها، ولقد أُوتي الشيخ رحمه الله قدرةً خاصّة على تقريب ذلك إلى لغة سهلة معاصرة، وتلخيصه بأحسن عبارة، وأسهل أسلوب، مع اجتناب ما لا فائدة منه، أو لا يتناسب مع هذا العصر، ومن ثمّ فقد أسهمت كتاباته رحمه الله في تحقيق هذا الهدف، وامتازت مؤلّفاته بعدّة مزايا أهمّها:

١ ـ **تقريبُ العلوم الإسلامية**، وتبسيط عرضها لتناسب لغة العصر، وتكون مؤثّرة جذّابة، لا تنزل عن الخاصّة، ولا تعلو على مستوى العامّة، وهذا ما نلاحظه في كتابه: **(مجموعة العبادات على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى)**.

٢ ـ ربط الحقائق الإسلامية بأدلّتها الشرعية من الكتاب والسنّة، والسيرة النبويّة، وهدي السلف الصالح، ففي كتب الشيخ وفرة من الأدلّة الشرعيّة مقصودة، وكثْرة هادفة، القصد منها تثبيت الحقائق الإسلاميّة في القلوب، وحمل الناس على التمسّك بها، والعمل بمقتضاها، وكان جلُّ اعتماده في ذلك على الأحاديث الصحيحة والحسنة.

ويستشـهد أحياناً بالأحاديث الضعيفة، وقد رخّص العلماء في روايـة الأحاديث الضعيفة، والعمل بها في فضائل الأعمال، إذا كانت تندرج تحت أصل شرعيّ عامّ، ولم يشتدّ ضعفها، وما يذكره من الأحاديث الضعيفة كلّه ممّا يتحقّق فيه ذلك.

وأما استشهاده بقصص الصالحين وأخبارهم، فهو من خير ما يعطي كتبه نكهة روحيّة تربويّة مؤثّرة، إذ إنّ «**حكايات الصالحين تحف الجنّة**»، كما جاء عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى، وقال الجنيد رحمه الله تعالى: «**الحكايات جندٌ من جنود الله عزَّ وجلّ، يقوّي بها إيمان المريدين**»، فقيل له: هل لهذا شاهد؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. وقال آخر: «**استكثروا من الحكايات فإنّها دُرَر، وربّما كانت فيها الدرّة اليتيمة**»[(١)]، فأخبار الصالحين توقظ القلوب وترقّقها، وتنهض بالعزائم وتُثَبّتها، وترقى بالمؤمن في مدارج الخير والكمال، وتدفع الغفلة عن قلبه بإذن الله تعالى.

ومن آثار ذلك: وصل الجيل المعاصر بسلف هذا الأمّة الصالحة، وبيان أنّ سبيل عودة الأمة إلى ما كانت عليه من العزّة والتمكين هو العودة الصادقة إلى دين الله تعالى، ونبذ التبعيّة للشرق أو الغرب، كما في مقدّمة رسالة: **(الحق والباطل)**.

---

(١) من مقدّمة كتاب: (صفحات من صبر العلماء)، ص١٨، لأستاذنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، نقلاً عن كتاب: (اللقط في حكايات الصالحين).

٣ ـ **عرض محاسن الإسلام ومزاياه**، وفضائله وكمالاته، وردّ شبهات أعداء الإسلام، وتفنيد مزاعمهم، وهو ما يلاحظ في كتبه في كلّ مناسبة، عدا ما أفرده بالحديث من ذلك وتحدّث عنه في رسالة: (**من محاسن الإسلام**).

٤ ـ **الاهتمام بالجانب التربويّ العمليّ**، سواءٌ ما كان يتّصل منه بالعقيدة أو السلوك، والبعد عن الموضوعات التي لا فائدة عمليّة منها.

وإنَّ القارئ لكتبه يجد فيها روح الإيمان والإخلاص، وحرارة الغَيرة الصادقة على مبادئ الإسلام وحرماته، والتركيز على العمل والسلوك، والاعتزاز بكلّ ما جاء به الإسلام...

٥ ـ **التركيز والاختصار**، والبعد عن التطويل المملّ، أو الاختصار المخلّ، أو الحشو والتكرار، فأسلوب كتابته أشبه بالمادّة التحضيريّة التي يعدّها المعلّم لتدريسه، والتي تشبه المذكّرات.

فكتابه: (الإيمان بالله تعالى) يُقرأ في جلسة واحدة، وكذلك كتابه: (شؤم المعصية وبركة التقوى) يُقرأ في جلسة واحدة، وكذلك رسالة: (سبيل الهدى والعمل)، لأنّ القصد الأوّل ممّا يكتب التذكير لا التعليم، وأكثر الناس حاجتهم إلى التذكير أكثر من حاجتهم إلى التعليم.

٦ ـ **ومن مزايا مؤلّفاته: تصحيح المفاهيم الخاطئة في فهم الدين** ومبادئه ومصطلحاته، ممّا يصدّ الناس عن العمل الصالح، ويجعلهم يسلكون مسالك منحرفة، في فهم الدين والعمل به، وهم يظنّون أنّهم على خير وهدى، بدءاً من مفهوم الإسلام وحقيقته، إلى مفهوم التوكّل، ومفهوم الإيمان بالقضاء والقدر، ومفهوم الرجاء وحقيقة الغرور، ومفهوم التمسّك بالدين وحقيقته.. وغير ذلك ممّا نراه مبثوثاً في كتبِه ورسائله..

٧ ـ **ومن مزايا كتبه: البعدُ عن إثارةِ الخلافاتِ الفكريّةِ والفقهيّةِ**، لما فيها من تشويشِ العامّة، وحملِهم على ما يتّسعُ الخلافُ فيه، وإشغالِ الناسِ بالقيل

والقال وكثرة الجدال، عمّا يُهمُّهم من صالح العمل، وإنكارُه على من يفعل ذلك ويشغل الناس بالجدل والمراء.

٨ - ومن مزايا كتبه: ما عرض فيها من تجاربه الدعويّة والتربويّة، ممّا فيه فوائد جمّة للعلماء والدعاة إلى الله تعالى، كما عرض في كتاب (الإيمان بالقضاء والقدر) من حواره مع بعض الطلاّب في مناسباتٍ مختلفة، وكما عرض في كتاب (الإيمان بالملائكة) من تجربته العمليّة عمّا يزعم من تحضير الأرواح، وما وصل إليه من نتيجة، تثبت كذب هؤلاء المدّعين وخداعهم للناس، ومن ذلك أيضاً ما ذكره في كتاب (الرؤى والأحلام) من رقة جرّبها بدعاء نبويّ مبارك، كان فيها حفظٌ من شرّ الشياطين وكيدهم، وسببٌ لمنع إجهاض المرأة الحامل.

٩ - ومن مَزايا كتبه: ما يختم به أكثرَها من أدعية نبويّة مختارة مناسبة، تقوّي الإيمان وتشحذ العزائم، وتوجّه القلوب إلى الله تعالى، ثمّ يوجّه نداءً للمؤمنين، أو للدعاة إلى الله تعالى، أو لعامّة الناس، ينهِضُ الهمم، ويحفزُ على الالتزام والعمل، ويحثّ على تطبيق ما جاء في الكتاب من أحكام وآداب.

* * *

المبحث الأوّل

كتبه المطبوعة ورسائله

إنَّ المَزيَّة الكبرى لكتب الشيخ رحمه الله أنَّها مرآةٌ صادقةٌ عن شخصيّته وسلوكه، فأنا أشهد، وأظنّ أنّ كلّ مَنْ عرف الشيخ معرفة وثيقة يشهد: أنَّ الشيخ ما كتب كلمةً أو قالها إلاّ وهو متحقّق بما يكتب أو يقول، ليس في نفسه فحسب، بل في أسرته أيضاً، كما كان حريصاً على أن ينقل ذلك إلى إخوانه ومحبّيه. .

وكان من بركة ذلك أنَّ الله تعالى كتب له القبول عنده، فلا عبرة بما يؤلّف، ولا بكثرَة ما يؤلّف إن لم يكتب الله له القبول، وهذا القبول عند الله من مظاهره وعلاماته: أن يوضع له القبول عند عباد الله، فيعمّ خيره، ويعظم أثره، وينتفع به الناس. .

وعندما يجمع العالم الداعية بين التعليم والدعوة، والتربية والرعاية، والتأليف والكتابة، يكون قد استكمل أبواب النصح للأمّة، وأحكم أبواب الخير لنفسه، إذ ترك بعده علماً ينتفع الناس به، فاستمرّ عمله من بعده إلى ما شاء الله، والله يعطي الفضل كيف يشاءُ. .

وقلّ من العلماء والدعاة من يستطيع التوفيق بين القيام بأعباء الدعوة ومسؤولياتها، والقدرة على الكتابة والتأليف، وتبليغ الفكرة لأوسع جمهور ممكن من الناس حاضراً ومستقبلاً، بل إن بعض الذين شغلوا بكثير من الدروس واللقاءات العامّة، يقلّلون من أهميّة الخطاب المكتوب، ويرون الانشغال بذلك ضرباً من تبديد الجهد، وضياع الوقت.

ولكنّ الكتاب يبلغ ما لا يبلغ الخطاب، ويبقى ما لا يبقى الخطاب، والكلام المسموع تكرّ عليه عوامل النسيان فتمحوه، وأمّا الكتاب المرقوم فهو

حجّة لمن كتبه، وحجّة على من بلغه، وذكر لمن قرأه ووعاه.

وقد وفّق الله تعالى الشيخ أحمد رحمه الله، فكان من أولئك الذين اعتنوا بالكتابة، ورأوا فيها ضرورة دعويّة، ووسيلة حيويّة، من وسائل تبليغ الدعوة، ونصرة الفكرة، وتقريب الحقّ إلى أبناء جيله، فترك لنا من بعده رحمه الله، آثاراً كثيرة متنوّعة، كلّها ذات غرض دعويّ وتربويّ، يتجلّى في موضوعاته وأفكاره وضوح الأهداف وشرف المقاصد.

سرد مؤلّفاته رحمه الله:

● **كتبه المطبوعة ورسائله:**

أولاً ـ كتب ورسائل منوّعة:

١ ـ رسالة سبيل الهدى والعمل.

٢ ـ كتاب الاجتهاد والمجتهدون.

٣ ـ كتاب قبسات من نور النبوّة بالاشتراك مع فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الفتّاح أبي غدّة رحمه الله وأجزل مثوبته.

٤ ـ رسالة أخطاء لغويّة شائعة وتصويباتها.

٥ ـ كتاب مجموعة العبادات على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، وفي ختامه قصائد من شعره.

٦ ـ رسالة التكريم الصادق بالاتّباع الكامل.

٧ ـ الاشتراك مع بعض مدرّسي التربية الإسلامية، في وضع مناهج هذه المادة للمرحلة الابتدائيّة، وتربيتها.

ثانياً ـ سلسلة العقائد وهي:

١ ـ الإيمان بالله تعالى.

٢ ـ الإيمان بالرسل.

٣ ـ الإيمان بالملائكة .

٤ ـ الإيمان باليوم الآخر .

٥ ـ الإيمان : خصائصه ، علاماته ، ثمراته ، وهو في قسمين .

٦ ـ الكفر والمكفّرات .

ثالثاً ـ سلسلة (من هدي الإسلام) :

١ ـ شؤم المعصية وبركة التقوى .

٢ ـ هذا الإنسان .

٣ ـ الدعوة إلى الإسلام وأركانها .

٤ ـ من محاسن الإسلام .

٥ ـ الفتن .

٦ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٧ ـ القلب .

٨ ـ منهاج التربية الصالحة .

٩ ـ فضيلة الدعاء والذكر ، وهو مطبوع في قسمين .

١٠ ـ الحقّ والباطل .

١١ ـ التوبة ، وهو مطبوع في قسمين .

١٢ ـ العمل الصالح .

١٣ ـ الرؤى والأحلام .

١٤ ـ الهدى والضلال .

١٥ ـ العشر المهلكات .

● **كتبه غير المطبوعة ورسائله :**

١ ـ كتاب بلوغ الأمل وشرح وصايا : (سبيل الهدى والعمل) .

٢ ـ من مواطن العبر في قصص القرآن الكريم، أو: نَفحات الرحمن في بيان مواطن العبر في قصص القرآن.

٣ ـ من نداءات القرآن الكريم.

٤ ـ مختارات من كلام السلف.

٥ ـ مجموعة العبادات على المذهب الشافعيّ.

٦ ـ كتاب الآداب الإسلاميّة.

٧ ـ نسائيّات.

٨ ـ مراحل حياتي بقلمي.

٩ ـ ديوان شعره، واسمه: **(النزر الطفيف من نظم العبد الضعيف)**.

١٠ ـ تتمّة العشر المهلكات.

١١ ـ رسـائل دعويّـة وتربويّة، في موضوعات متنوّعة، كان قد وجّهها للشباب في المخيّمات التربويّة.

١٢ ـ الأمالي في جلسة الأحد والثلاثاء الأسبوعيّة، وكانت بعنوان: **(تذكير وتحذير)**[١].

● **خطبه؛ وكلها مكتوبة.**

* * *

(١) وقد استخرج منها الباحث أساليب تربويّة، وتوجّهات دعويّة، ونشر نماذج منها في كتاب بعنوان: (أساليب تربويّة، ومواقف دعويّة من حياة الشيخ أحمد رحمه الله).

١ ـ رسالة سبيل الهدى و العمل

المقاس صغير، وعدد صفحات الطبعة العاشرة (١٠٠).

سبب تأليف هذه الرسالة:

وقد حدَّثنا مرّة عن سبب تأليفه لهذه الرسالة فذكر أنّه كان في كلّ لقاء مع أقاربه وأرحامه يحثّهم على التمسّك بفضائل الإسلام وآدابه، ويذكر لهم بعض الفضائل، ويحثّهم عليها، فقالت له مرّة بعض محارمه: إنّنا لا نعرف كثيراً من الأحكام والأعمال المطلوبة من المسلم، ولو عرفناها لعملنا بها، ولسنا على علم شرعيّ واسع، فلو دللتنا على كتابٍ مختصر، يجمع أوامر الإسلام ونواهيه باختصار. . فأعجبت الفكرة الشيخ، وفكّر في كتاب يكون كذلك، فلم يجد، فعزم على أن يقوم بهذا الجهد، وأن يجعلَه على أسلوب الوصايا: افعلْ كذا، واتركْ كذا، وأن يستقصي فيه أحكام الإسلام وآدابه في كلّ جانب من جوانب الحياة، فاجتهد في ذلك، حتّى كان له ما أراد. .

ـ يقول في مقدّمة الطبعة الأولى من رسالة: (سبيل الهدى والعمل):

«وبعد: أيّها الأخ المسلم! أنت في زمنٍ أدبر خيره، وأقبل شرّه، عَبَدَ الناس فيه الهوى، وأخطؤوا طريق الهدى، مع أنّ النبيَّ ﷺ قال: «**تركتُ فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما: كتابَ الله وسنّتي**»[(١)].

ومن أجل ذلكَ جمعتُ لكَ في هذه الرسالة من الأوامر والنّواهي ما استطعت، فجاهد نفسك على العمل بها تكن من المتّقين، ولا تركن إلى من يصدّك عنها، أو عن شيء منها، وتدبّر قول ربّك عزّ وجلّ: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠].

---

(١) رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأنتِ أيّتها الأخْت المسلمة! خذي هذه الوصايا بالقبول، واعملي بها، واعلمي أنّكِ نصف المجتمع، ومربّية النصف الآخر، فإذا صلحتِ صلح، وإذا فسدتِ فسد.

اعملي بهدي الدين، وتحلّي بفضائله ومكارمه، ولا يغرّنكِ شباب يذهب، وجمال خلّب، وثوب يبلى، إنّما الجمال دين وخُلق وعفاف...».

ويقول في مقدمة الطبعة الثامنة من رسالة: (سبيل الهدى والعمل):

«وبعد؛ فقد منَّ الله تبارك وتعالى على عباده ببعثة نبيّه سيدنا محمد ﷺ، والعالم يتخبّط في ظلمات الجاهلية الجهلاء، والضلالة العمياء، فأنقذهم بشريعته من الظلمات إلى النور، وجعلهم باتّباعه سادة الأمم، وملوك الأرض، فسطّروا في تاريخ الإسلام الزاهر صفحات مشرقة خالدة، تشرّف الإنسانية إلى أبد الآباد.

ولم يزالوا كذلك في عزّة وقوّة ورفعة، يرفلون في حلل السعادة والسيادة، حتى زلّت بهم الأهواء، وأضَلّتهم الفتن، فنزلوا من علياء الإسلام درجة درجة، حتى صاروا إلى هذه الهوّة السحيقة، وتاهوا في فيافي المعاصي والضلال، والمذاهب المنحرفة الحمقاء، فذهبت ريحهم، وتفرّقت كلمتهم، وطمع بهم العدو، فذلّوا بعد عزّ، وضعفوا بعد قوة، وأصبح مجتمعهم مجتمعاً مريضاً، تفاقمت علله، وتشابكت أسقامه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]».

ـ ثم يقول: «ومن أبرز أمراض هذا المجتمع.

١ ـ الجهل بالإسلام.
٢ ـ ضعف الإيمان.
٣ ـ التهاون بالمعاصي.
٤ ـ التقليد الأعمى.
٥ ـ فتنة النساء.
٦ ـ الرضا بالصلاح النسبي.
٧ ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨ ـ إهمال تربية البنين والبنات».

ويشرح هذه العلل والأمراض باختصار، ثم يقول رحمه الله: «لكلّ داء دواء: هذا داء المسلمين، فما هو دواؤهم؟»، فيجيب بقوله: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها، فإذا أراد المسلمون النجاة سلكوا سبيل النجاة، وسبيل النجاة العودة الصادقة إلى دين الله وشرعه، بمجاهدة النفوس على التمسّك بالإسلام والعمل بأحكامه، وبالصحبة الصالحة المعينة على السير في هذا الطريق القويم.. **ولا بدّ في ذلك من التآخي في الله، والتعاون على مرضاة الله، والتناصح في دين الله، والرجوع إلى المساجد، بيوت الله، والاستشفاء فيها من أدران المادة، وعلل المادة، وتغذية الروح بطاعة الله**.. أما القعود عن ذلك، والغرور بالأماني، من غير سعي ولا طلب، فلا يوصل إلى غاية، وليس هو من شأن العاقلين»[1].

* * *

---

(١) مقدمة الطبعة الثامنة من رسالة (سبيل الهدى والعمل)، ص٢٤.

٢ ـ كتاب (الاجتهاد والمجتهدون وضرورة العمل بمذاهب الأئمة الأربعة وخطر اللامذهبية الضالّة)

الكتاب مقاس ٢٤×١٧، وعدد صفحاته (٢٠٦)، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ، الناشر مكتبة الشباب المسلم، حلب ـ باب النصر.

سبب جمع الكتاب وتأليفه:

١ ـ جراءة بعض العوامّ، الذين لا حظّ لهم من العلم أو الفهم على الاجتهاد والفتوى، وقد رأينا مَنْ يفتي وليس له حظّ من ثقافة محو الأميّة سوى بلوغ سقف المرحلة الابتدائيّة، وكانت غاية الأدوات في ذلك ثلاثة كتب من كتب أهل العلم، ولا ضرورة لإتقان تلاوة كتاب الله تعالى وتجويده، ولا لمعرفة اللغة العربية وعلومها، وقواعد الاستنباط وأصوله، فضلاً عمّا يتّصل بذلك كلّه ويكمّله . .

٢ ـ الفتاوى الشاذّة المضلّلة للأمّة، المشوّشة في دينها، التي تقود الأمّة إلى فوضى دينيّة وفكريّة لا تقف عند حدّ، فمنها: أنّ الدخان في نهار رمضان لا يفطّر، لأن العلماء ما كانوا يعلمون أنّ الدخان يدخل إلى الرئة لا إلى المعدة. ! وأشهر أحدهم سيجارته في نهار رمضان أمام زملائه، وهو يعلن لهم هذه الفتوى. . التي استهوى بها أمثاله من الجهلة ومَنْ في قلبه مرض. . ولا حرج على من أكل قبل طلوع الشمس في رمضان! وعروض التجارة لا زكاة فيها مهما بلغت، لأنّها لا نصّ فيها! .

٣ ـ الانتقاص من قدر الأئمة الأربعة، وقد كان للإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى من سفهِ هؤلاء الحظّ الأوفى، فقال بعضهم: «مَن أبو حنيفة؟ أنا أضعه في

جيبي!». وقال آخر: أبو حنيفة كان جاهلاً في الحديث! وقال آخر أمام صغار طلبة العلم الذين يفترض فيه أن يلقّنهم الأدب قبل العلم: أخطأ الشافعيّ في كذا وكذا! وأخذَ يستهزئ بكلامِ الإمام الشافعيّ رحمه الله، في مسألة من مسائل العلم.

ونحن لا ندّعي العصمة للإمام الشافعيّ رحمه الله، ولا لأحد من الأئمّة، ولكن أيّ عاقل غيور على الدين والعلم يرتضي مثل هذا السفه، وقلّة الأدب، والجراءة على أعراض الأئمّة، الذين وهبوا حياتهم لدين الله تعالى وشرعه، والنصح لكتابه وسنّة نبيّه ﷺ، وأئمّة المسلمين وعامّتهم؟! ومتى كان العلم بدين الله يُنالُ بالطعن بخيار سلف هذه الأمّة؟! سبحانك هذا بهتان عظيم!.

فرأى الشيخ أحمد أنّ هذه البدعة نذير شرّ مستطير، وأنّ الوقوف في وجهها من أوجب الواجبات، ولا يقوم به عالم وحده، وإنّما ينبغي أن يرى العامّة موقفاً لأهل العلم واحداً تجاه هذه البدعة الخطيرة، ليعلموا أنّ أصحابها ليسوا على خير ولا رشد.. فقدّم حول هذه الشبهات أسئلة لعدد من أعلام العلماء والفقهاء في العالم الإسلاميّ، وعلى وجه الخصوص في بلاد الشام، ثمّ جمع الإجابات التي وصلته في كتاب أخرجه بهذا العنوان، وكتبَ مقالة للتعريف بالأئمّةِ الأربعة، وأعقبها بكلمة في إجلال الأئمّة بعضهم بعضاً.

يقول رحمه الله في مقدّمة كتابه: «والخطأ إلى من يجتهد وليس أهلاً للاجتهاد أقرب منه إلى من يقلّد المجتهد الموثوق به، المشهود له بالإمامة. وهذا تنزّل اقتضاه المقام، وإلاّ فاجتهاد من ليس أهلاً للاجتهاد أكبر الكبائر، وأعظم الجنايات على الدين وأهله، على أنّ أتباع الأئمّة لم يكونوا من مقلّديهم على ما يزعم هؤلاء، فإنّا نرى أبا يوسف ومحمّداً كثيراً ما يخالفان أبا حنيفة، بل لا نكاد نجد في مسألة لا يذكر فيها ذلك الخلاف الذي يبيّن استقلالهم، وشدّة حرصهم على اتّباع الحقّ متى ظهر دليله..

فكان لكبارِ الأئمّة الاستقلال التامّ، ولأكابر تابعيهم الاستقلال الجزئيّ،

من التضعيف والترجيح، وللعامّة الاتّباع، فإنّه لا يصحّ فيهم غير هذا، وهو عين الحكمة، ولولا ذلك لصار الدين لعبة بيد الجهّال، وهذا ما نخاف منه، ونحاول القضاء عليه.

وليس معنى ذلك أنّنا نقول بعدم الاجتهاد، أو أنّه أغلق بابه كما يقولون، فإنّ أبواب فضل الله لا تغلق، وهل هذا إلاّ حجر على الله عزّ وجلّ؟ ولكن هناك فَرْقٌ كبيرٌ بين إمكان الشيء ووقوعه، وبين إسناده إلى غير أهله، وقد أصبحنا في زمان ضاعت فيه الحدود، وتعدّى كلّ إنسان طوره، ولم يعرف قدره، وهي أكبر مصائبنا، وأعظم بلايانا، التي نئنّ منها ولا نعلم منتهاها. .

نحن نرى أنّ الناس على درجات شتّى فيما وهبهم الله من الاستعداد الفطريّ، وفيما أحاط بهم من ضروب التربية المختلفة، والبيئات المتنوّعة، وما قدّر لهم من فنون الشواغل، وما عنوا به ممّا أقامهم الله فيه، ونرى أنّ كلّ طبقة لها حكم يخصّها، فمن وصل إلى درجة الاجتهاد، وجب عليه الاجتهاد، وكان آثماً بتركه، ومن وصل إلى درجة الترجيح، وجب عليه ذلك، ومن قعد به استعداده أو تربيته أو بيئته، أو أحاط به من شواغل المعيشة أو الوظيفة فعليه أن يقلّد من يثق به، ويعلم أنّه غير جاهل بدين الله، ولا غاشّ فيه. . ولا يكلّفُ اللهُ نفساً إلاّ وسعها.

وإني لأعجب لهؤلاء، كيف يجعلون أمر الاجتهاد أقلّ من جميع الصنائع، التي لا يجتهد صاحبها إلاّ إذا كان له فيها علم واسع، وعمل متكرّر، حتّى يعرف أسرارها ودقائقها، ويصبح من ذوي التبريز فيها. . وكأنّ مسألة الدين أصبحت من أقلّ المسائل لدينا، وأهونها علينا. . .» إلى آخر كلمته الدقيقة الرصينة، رحمه الله وأجزل مثوبته.

العلماء الذين استكتبهم:

ولا نعرف على وجه الدقّة عدد العلماء الذين استكتبهم لهذا الغرض، ولكنّ العلماء الذين وصلته إجاباتهم، وأدرج مقالاتهم في الكتاب هم:

ـ الشيخ عبد الله خير الله، مفتي منطقة جبل سمعان في محافظة حلب.

ـ الشيخ محمّد الحامد، خطيب جامع السلطان بمدينة حماة.

ـ الشيخ محمّد إبراهيم السلقينيّ، مدرّس الفقه وأصوله في الثانويّة الشرعيّة بحلب، وإمام وخطيب مسجد الطواشي.

ـ الشيخ عبد العزيز عيون السود، أمين الإفتاء في محافظة حمص.

ـ الشيخ عبد الوهاب الحافظ الملقَّب بدبس وزيت، أحد علماء مدينة دمشق وفقهائها.

ـ الشيخ محمد محمد العربي بن التبّانيّ، المدرِّس بالحرم المكّيّ الشريف.

وقد نقل أوّل الكتاب كلمة للشيخ عبد الرحمن حسن، من مقدّمة كتابه: (الفقه على المذاهب الأربعة).

* * *

٣ - كتاب (قبسات من نور النبوة)

وقد ألّفه بالاشتراك مع فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبي غدّة رحمه الله وأجزل مثوبته. الطبعة الثانية، المقاس وسط، وعدد الصفحات (١٤٦)، كانت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٥١م، والطبعة الثانية بعناية الباحث عام ١٤٢٠هـ الموافق ١٩٩٩م، وقد ألحق بها رسالة له بعنوان: (ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ)، وقد قدّم هذه الطبعة فضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني، نجل المترجَم له رحمه الله.

وكما يبدو من عنوان هذا الكتاب فهو ليس كتاباً في السيرة، يستقصي في رواياتها، ويلتزم عرض أحداثها على حسب التسلسل الزمنيّ المعروف، وإنّما هو (قبساتٌ) كما عنون له المؤلّفان رحمهما الله تعالى، وكان القصد منها الردّ على غويٍّ ضالٍّ، ردّد بجهله وعمايته بعض شبهات المستشرقين وافتراءاتهم عن النبي ﷺ، فتجرّد الشيخان لكتابة هذا الردّ دون ذكر اسمه، أو ما ذكر من افتراء، تصغيراً لشأنه، وانطلاقاً من أنّ كلّ ما يفترى في هذا الشأن، فهو يعود إلى الجهل بسيرة هذا النبي العظيم ﷺ، وقدره الكبير، ومن ثمّ كان حقّاً على العلماء والدعاة إلى الله أن ينشروا أخبار سيرته العطرة، ويعرّفوا الناس والناشئة بوجه خاصّ بخصائصه ومعجزاته ﷺ، وشمائله وكمالاته، لتقوم الحجّة، ويقطع دابر كلّ شبهة.

* * *

٤ ـ رسالة أخطاء لغويّــة شائعة وتصويباتها، (٥٠٠) كلمة

نشـرت الطبعـة الأولى بتاريخ ١٣٨١هـ الموافق ١٩٦١م، ولم يطبع بعد ذلك. المقاس صغيـر، وعدد الصفحات (٥٦).

وقد بنى هذه الرسالة على قوله: «قل كذا ولا تقل كذا»، باختصار ودون تعليل أو إحالةٍ إلى مرجع، ويجمع هذه الكلمات كلّها أنّها ممّا شاع على ألسنة الناس، وأقلام الكتّاب، ولكنّها كما يلاحظ جمعت بين نوعين من الأخطاء:

ـ **النـوع الأول**: أخطاء لغويـة مرجعها الخروج عن الاستعمال اللغويّ الصحيح.

ـ **والنـوع الثاني**: أخطـاء هي من نوع اللغة العاميّة، واللهجة المحليّة، وما شـاع بوجـه خاصّ في مدينة حلب بين العامّة والخاصّة من كلمات تركيّة، أو فرنسية، قد انزلقت إلى ألسنة الناس نتيجة القرب من تركية، والاتصال الوثيق بأهلها، أو تأثّراً بالغزو الثقافي الفرنسيّ.

على أنّ النوع الأوّل لا يسلّم به كلّه، ففيه ما عُدّ من الأخطاء، وهو يدور ما بين صحيح وأصحّ، أو راجح ومرجوح، أو ما أقرّته بعض المجامع اللغوية.

ويُحمد للشيخ هذا الحسّ اللغويّ الدقيق، والغيرة الصادقة على لغـة القرآن الكريم، التي دفعتـه إلى جمع هذه الرسـالة، وإشـاعتها بين النـاس، بتوزيعها مجّاناً، رحمه الله وأجزل مثوبته، وقد كان ديدنه تنبيه طلاّبه وتلامذته وجلسائه على بعض الأخطاء اللغويّة، وما يقابلها من الصواب، ولم يكن مع المقولة غير الحكيمة الشائعة: «خطأ شائع خير من صواب مهجور».

❊ ❊ ❊

٥ ـ كتاب (مجموعة العبادات)

على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله

المقاس كبير ٢٢×١٦ ، وعدد الصفحات (٣١٧)، وقد طبع الكتاب في حياة الشيخ مفرّقاً ومجموعاً، وطبع بعد وفاته كذلك، لتسهيل حمله على الدارسين، ولحاجة من يريد أداء المناسك إلى كتاب في الحجّ والعمرة مستقلاً.

وفيه أبواب الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحجّ، والعمرة، وفي ختامه قصائد من شعره في المديح النبويّ، والحنين إلى المشاعر المقدّسة.

والشيخ في كتاب الحجّ والعمرة ـ فيما أعلم ـ أوّل من جعل أحكام الحجّ والعمرة في جدول على المذاهب الأربعة، تسهيلاً للناس في التعرّف على أحكام المذاهب الأربعة، ثم تبعه من كتب المناسك.

وقد عرض كتابه على عدد من فقهاء الحنفيّة المتمكّنين في مدينة حلب، لمراجعته وتدقيقه، أذكر منهم فضيلة أستاذنا العلاّمة الشيخ محمّد إبراهيم السلقينيّ، وأستاذنا العلاّمة عبد الله خير الله مفتي جبل سمعان، رحمهما الله تعالى. لما كان له من صلة وثيقة بجميع إخوانه من العلماء والمشايخ، ولشدّة شعوره بمسؤوليّة العلم وأمانته.

* * *

٦ ـ التكريم الصادق بالاتّباع الكامل

المقاس صغير ١٧×١٢، وعدد صفحات الطبعة الثانية (٢٤).

كتبها بمناسبة احتفالات الناس السنويّة بربيع الأوّل.

وقد خشي أن يتحوّل هذا الاحتفال إلى تظاهرة اجتماعية شكليّة، تبتعد عمّا يجب على المسلم تجاه نبيّه ﷺ، من حُسن التأسّي والاتّباع، والتمسّك بالسنّة، والأدب مع صاحبها ﷺ، وأصل هذه الرسالة في كتاب: (قبسات من نور النبوّة)، وقد أضاف إليها ما يناسب المقام، ثمّ خطب بها الجمعة، وطبعها ووزّعت على الناس.

* * *

٧ ـ سلسلة العقائد[1]

١ ـ الإيمان بالله تعالى، المقاس صغير ١٢×١٧، عدد الصفحات (١٠٧).

٢ ـ الإيمان بالرسل، المقاس صغير (١٢×١٧)، عدد الصفحات (٢٠٣).

٣ ـ الإيمان بالملائكة، المقاس صغير (١٢×١٧)، عدد الصفحات (٢٣١).

٤ ـ الإيمان باليوم الآخر، المقاس (١٢×١٧)، عدد الصفحات (١٥٧).

٥ ـ الإيمان خصائصه، علاماته، ثمراته؛ وهو في قسمين. المقاس صغير (١٢×١٧)، عدد الصفحات (٢٧٩).

٦ ـ الكفر والمكفّرات، المقاس صغير (١٢×١٧)، عدد الصفحات (٢٨٥).

سبب تأليف هذه السلسلة:

إن كتابة العقيدة بلغة العصر كانت حاجة للجيل ماسّة: فلقد اجتاحت بلاد الشام في النصف الثاني من القرن العشرين موجة من الإلحاد كانت أشبهَ ما تكون بموضةٍ تافهة يعبّر فيها الفارغون عن تغرّبهم النفسيّ والفكريّ، والتظاهر بالعلمِ والثقافة، وكانت زراعة استعماريّة فرنسيّة المنشأ، ماسونيّة المخبأ، نصرانيّة التعهّد والنموّ، ثم ما لبثت تلك الموجة أن سرت لتشمل أبناء المسلمين من طلاّب المدارس، الذين هم في عمر الزهور، فكانوا كثيراً ما يتلقّفون الشبهاتِ من بعض أساتذتهم، فتحدِث في عقولهم تشويشاً وبلبلة، ممّا يدعوهم إلى

---

(١) طبعت سلسلة العقائد وسلسلة من هدي الإسلام الطبعة الأولى في حلب عام ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م أو ما قبل، ثمّ طبعت الطبعة الثانية وما بعدها من الطبعات عن طريق دار السلام في مصر عام ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م وما بعد.

طرحِها على مدرّسيهم، ومن يتوسّمُون فيهم القدرة على حلّها، والإجابة عنها. . فمنهم من يحظى بإجابة مقنعة، ومنهم من يسمع ما لا يشفي عليلاً، ولا يروي غليلاً. . فكانت الحاجة ماسّة إلى كتابة العقيدة الإسلاميّة، وعرضها بصورة ملائمة للعصر، مستجيبة لمتطلّبات الجيل. .

منهجه في كتابة العقيدة:

يقـول رحمه الله في مقدّمـة كتاب: **(الإيمان بالله تعالى)**: «وإنّ هذه القواعد الخمس ـ يعني أركان الإسلام ـ إنّما هي دعائم لمصالح الناس، وأسس تبنى عليها سعادتهم، وكلّ قاعدة منها عماد لأمّهاتٍ من الفضائل، وسبيل إلى خيري الدنيا والآخرة، لو رعاها المسلمون حقّ رعايتها، وألمّوا بأحكامها وأسرارها، وقاموا حق القيام بواجباتها.

وأجلّ خدمةٍ علميّة دينيّة للمسلمين أن يمهِّد السبيل لهم إلى العلم بهذه القواعد، ومعرفتها على أكمل وجه، حتى يكون المسلم في عقيدته مؤمناً على علم، مطمئناً إلى الإيمان قلبه، لا تشوب عقيدته أوهام ولا أباطيل، وبهذا تثمر العقائد مكارم الأخلاق، وتستقيم أحوال الناس.

مـن أجل ذلك عزمتُ بعونـه تعالى على إخراج سلسـلة تحت عنوان: (سلسلة العقائد) توخّيت فيها أن تكون سهلة المأخذ، قريبة المنال، يفهمها العامّة، ولا تنزل عن مستوى الخاصّة، ليطّلع فيها المؤمن على ما يجب الإيمان به، والإذعان له ممّا جاء به الإسلام الحنيف».

ويقول ولده فضيلة الشيخ الدكتور محمد أبو الفتح في تقديمه للسلسلة: «فإنَّ من خصائص العقيدة الإسلامية وضوحها وسلامتها من التعقيد، حيث يسهل فهمها على العقل السليم، وتسرع إلى تقبّلها القلوب والفطرة البشرية.

وقد كتبت العقيدة الإسلامية بأساليب متعدّدة، حسب العصور ولغاتها، وتنوّع أساليب التأليف فيها. . حتى كادت تطغى بعض الأساليب على خاصّية وضوحها، وتضيع جمالها، بـل أصبحت مادة العقيدة الإسـلامية في بعض

الأزمان والبلدان من أصعب الموادّ الدراسيّة على الدارسين، وأضحَت في بعض كتبها المعتمدة على علم الكلام والجدل، عقيدة نظرية جافّة، تخاطب العقول، ولا تلامس بشاشتها القلوب، فتلاشى نورها، وخفيَت آثارها الطيّبة في حياة الناس، بعد أنْ كانت محور حياتهم، وأساس تحرّكهم وسكونهم.

ومن هنا: اهتمَّ الدعاة بإعادة النظر في التأليف فيها، ودَعوا إلى تجريدها عن أساليب علم الكلام والجدل، وعرضها واضحةً على الناس جميعاً، على مختلف مستوياتهم، مقتبسين ذلك من منهج القرآن الكريم في تقريرها، ومَسيرة الرسول ﷺ في تبيينها.

وكانت مجموعة العقائد هذه للسيّد الوالد الشيخ أحمد عزّ الدين البيانونيّ رحمه الله تعالى من أولى المبادرات الناجحة، في هذا السبيل.

فكان أسلوبه في كتابتها ـ كما يرى القارئ الكريم ـ سهل المأخذ، قريب المنال، يخاطب العقل والقلب معاً، ويلحق العلم بالعمل، فهو إذ يحدِّث عن الإيمان بالله عزَّ وجلّ وأركانه، يلحقه بالحديث عن خصائص الإيمان وعلاماته، وثمراته، ويستغرق حديثه في الجانب الثاني ثلث المجموعة لأهمّيته العمليّة في دراسة العقيدة»[1].

١ ـ الإيمان بالله تعالى:

ونقرأ في هذه الرسالة: الإسلام والإيمان، العقل مناط التكليف، أقسام العقائد الإسلامية، القسم الأول: الإلـهيات، الإيمان بالله تعالى، ذات الله وأسماؤه، معاني بعض الأسماء الكريمة، أسماء وردت على سبيل المجاز، أسماء الله تعالى توقيفية، صفات الله تعالى، من حمق الملاحدة، المصادفة، حديث مع طالب، عالم وملحد، الله خالق كل شيء، من صفات الله تعالى في القرآن: وجود الله تعالى وقدمه، بقاؤه تعالى ومخالفته للحوادث، قيام الله تعالى بنفسه، وحدانية الله تعالى، قدرة الله تعالى وإرادته، علم الله تعالى، حياة

---

(١) ص٣ ـ ٤ من مقدّمة كتاب الإيمان بالله تعالى.

الله تعالى، سمعه تعالى وبصره، كلام الله، صفات الله لا تتناهى، بين صفات الله تعالى وصفات المخلوقين، سؤال يقف أمامه كثير من الناس، محبة الله تعالى، من علامات محبة الله عبده، من علامات محبة العبد ربه تعالى، مما يحبّه الله من الأعمال والخصال، من الخلال التي يبغضها الله تعالى، تأنيب، دعاء.

٢ ـ الإيمان بالرسل:

ونقرأ في هذه الرسالة: أقسام العقائد الإسلامية، الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، معنى الرسالة، الرسل عليهم الصلاة والسلام، عدد الرسل عليهم الصلاة والسلام، تأييد الله الرسل، المعجزة، الفرق بين المعجزة والسحر، من المعجزات، من معجزاته ﷺ: القرآن الكريم، انشقاق القمر، تكثير الطعام القليل، نبع الماء من بين أصابعه، الإسراء والمعراج، حنين الجذع له ﷺ، سرعة استجابة دعوته ﷺ، الإخبار بالمغيّبات، تفضيل نبينا ﷺ على النبيين وطرف من خصائصه: ميثاق النبيّين، عموم رسالته، شفاعته، لزوم الأدب معه ﷺ، تعظيمه ﷺ، والصلاة على النبي ﷺ، نداء الله تعالى إيّاه، صفات الرسل: الصدق، الأمانة، التبليغ، الفطانة، مايجوز في حقّ الرسل، طاعة الرسل توجب الجنّة، النصر للرسل، التحذير من مخالفة الرسل، الندامة للمكذبين يوم القيامة، الوحي، أقسام الوحي، ظاهرة الوحي.

موجز السيرة المحمّدية الشريفة: نسبه، أدوار حياته ﷺ، الدور الأول من حياته، الدور الثاني من حياته، الدور الثالث من حياته، الهجرة إلى المدينة، أولاده وزوجاته الطاهرات وسراريه، من الحكمة في تعدد زوجاته، أعمامه وعمّاته، أمّه من الرضاع وحاضنته، طرف من شمائله، كيف نحيي ذكراه.

الولاية والوليّ، هل يعلم الوليّ أنّه وليّ، خوف الوليّ من الله تعالى، كرامات الأولياء والصحابة، وصيّة هامة.

الكتب المنزّلة: التوراة، الزبور، الإنجيل، القرآن الكريم، الصحف، ما تضمّنه القرآن الكريم، كيف نزل، مدة نزوله وأول ما نزل وآخره، عدد سور القرآن المكي والمدني منه، أمر النبي ﷺ بكتابة ما نزل، ترتيب القرآن الكريم

وجمعه وتدوينه، المصحف الإمام أو مصحف عثمان رضي الله عنه، الفرق بين الجمعين، ما كانت عليه كتابته وما صارت إليه، فضل القرآن الكريم وتلاوته وآداب تلاوته.

٣ ـ الإيمان بالملائكة:

ونقرأ في هذه الرسالة: أقسام العقائد الإسلامية، الروحانيات، الملائكة، خلقت الملائكة من نور، عِظَم خلق الملائكة، الملائكة تتشكّل بأشكال مختلفة، عصمة الملائكة، مسكن الملائكة السماوات، عبادة الملائكة، وصلاتهم وخوفهم ورؤساؤهم، الملأ الأعلى، النديّ الأعلى، الرفيق الأعلى، الملائكة يفضل بعضهم بعضاً، أصناف الملائكة، حملة العرش، والحافون من حوله، ملائكة الجنة، خزنة النار، الملائكة واسطة الوحي، الملائكة الموكلون بتطوير النطفة، الملك ينفخ الروح في الجنين ويكتب المقادير، كتابة القلم جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة، كتابة مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض، كتابة المقادير بعد خلق السماوات والأرض، الملائكة الموكلون بكتابة أقوال بني آدم وأفعالهم، اطّلاع الملائكة الكاتبين على ما في قلوب بني آدم، تكتب الأعمال بالنيات، مصير الكرام الكاتبين بعد موت الإنسان، الأمر بالاستحياء من الملائكة، موقف العبد يوم القيامة من كتابه وكتّابه، الملائكة الموكّلون بحفظ بني آدم، قرناء بني آدم من الملائكة، المسخّرون لقبض الأرواح، ملائكة السؤال في القبر، الموكّلون بتدبير أمور الجبال، الموكّلون بالسُّحُب، الملائكة يصلّون على النبي ﷺ، ويبلغون الرسول ﷺ صلاة أمته وسلامها عليه، الملائكة تصلّي على من يصلّي على النبي ﷺ، وتدعو للمؤمنين وتستغفر لهم، وتشفع للمؤمنين، حضور الملائكة صلاة الجمعة واستماعهم للذكر والموعظة، شهود الملائكة يوم الجمعة، تأمين الملائكة لفاتحة الصلاة، تحميد الملائكة في الصلاة، الملائكة يتفقدون أهل المساجد، حضور الملائكة مجالس الذكر، والله تعالى يباهي بعباده الذاكرين الملائكة، وتحف بالذين يتلون كتاب الله، وتحف طالب العلم

بأجنحتها، الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، وتصلي على من في صفّ الصلاة الأول، وتصلّي على من يعود المريض، وعلى من مشى في حاجة أخيه، وتصلي على المتسحرين، وتدنو ممن رقّت قلوبهم بالوعظ والتذكير، تأمين الملائكة على دعاء المؤمن لأخيه، وتأمينهم على الدعاء عند المريض والمحتضر، محبة الملائكة للمسلم المستقيم، الملائكة واسطة البشرى للمؤمنين، بشارة المَلَك لمن زار أخاً له في الله، والملائكة تظل الشهداء بأجنحتها، وتحبّ من يحبّه الله تعالى، من تلعنه الملائكة، صعود الملائكة بالكلِم الطيّب والعمل الصالح، ما تتأذّى منه الملائكة، ما تنفر منه ملائكة الرحمة وتبعد عنه، الملائكة جنود النصر للمؤمنين، والملائكة تشيع جنازة المسلم، الملائكة يوم القيامة في صفوف.

عالم الجن: الجن: خلقه، صفاته، وقدرته، الجن كالإنس في العجز عن معارضة المعجزات، الجن لا يعلمون الغيب، وهم مطالَبون بالتكاليف الشرعية، هل في **الجن** أنبياء، بلوغ دعوة نبيّنا ﷺ لعالم الجن، الجنّ أصناف متنوعة، قرناء بني آدم من الجنّ، الشيطان يكره الطاعات، لا تدعوا اللقمة للشيطان، الشيطان عدو للإنسان، مسّ الجنّ للإنسان وعلاجه، صور من وساوس الشيطان: التشكيك في الله تعالى، التثبيط عن الطاعة، التحصّن من وساوس الشيطان، تنفير المسلم من عادات الشيطان، الطاعون وخز الجن، الجن يموتون، الروح، استحضار الأرواح، بدء التجربة، كيف بدأت المخادعة، تطوّر الموضوع، من هم الزائرون، بدأ انتباهي، انكشاف الحقيقة، السحر، أصل السحر، الفرق بين السحر والمعجزة، نفي مزاعم الجاهلين، الفأل الحسن، الكهانة، التنجيم، الرقى، كلمات الرقى، الرقية بالقرآن، وجواز الأجرة عليها، الإصابة بالعين، مما يدفع العين.

٤ ـ الإيمان باليوم الآخر:

ونقرأ في هذه الرسالة: أقسام العقائد الإسلامية، السمعيات: متى الساعة، من علامات الساعة، فضل العبادة في آخر الزمان، حلول البلاء بكثرة

العصيان، الموت، ثناء الناس على الميت، ذكر الموت، أقسام الناس في ذكر الموت، ما الجدير بالعاقل، ينتفع الميت بعمل غيره، النفخ في الصور، البعث والحشر، الحشر على أرض جديدة، كلام الله تعالى يوم القيامة، من أهوال يوم القيامة، بشرى المؤمنين في القيامة، محاسبة الله لعباده، القصاص، استلام صحف الأعمال، الميزان، الصراط جسر على جهنم، الحوض المورود، صفة الحوض وشرابه، الكوثر، الشفاعة، شفاعة نبينا محمد ﷺ، يشفع النبيّون والمؤمنون بإذن الله، أقسام الشفاعة، سعة الكرم الإلـهي، من صفة الجنّة وخدمها، بناء الجنّة وحصباؤها وترابها، طبقات الجنة وأبوابها ودرجاتها، أنهار الجنة وعيونها، أشجار الجنة وفواكهها، غرف أهل الجنّة وخيامها، أسواق الجنة، من أوصاف أهل الجنة، من صفات نساء أهل الجنة، أول من يدخل الجنة، الذين يدخلون الجنة بغير حساب، الأمّة المحمّدية أكثر أهل الجنّة، أول طعام أهل الجنة، الخلود في الآخرة، النظر في وجه الله الكريم، إحلال الرضوان على أهل الجنان، النار وأبوابها وأوصافها، من صفات أهل النار، شراب أهل النار وطعامهم، أهون أهل النار عذاباً، كلمة التوحيد تقي من النار، دعاء.

القضاء والقدر، ما هو القضاء والقدر، كلٌّ ميسَّر لما خُلِق لـه، لا ينبغي التنـازع في القدر، ندفع الأقدار بالأقدار، بيني وبيـن طالب، خلاصة، شوطان متباينان، أثر الإيمان بالقضاء والقدر، دعاء.

٥ ـ الإيمان خصائصه، علاماته، ثمراته:

ونقـرأ في هذه الرسـالة: الإيمان، تعريفه، الأمر به، أركانه، مكانـة الإيمان والمؤمن، صحبة المؤمن، التحذير من أذى المؤمن وخذلانه، الإيمان أساس قبول الأعمال، ليس الإيمان دعوى باللسان، الإيمان والعمل الصالح، المعصية لا تنفي الإيمان، من آمن فقد اهتدى، شعب الإيمان، حلاوة الإيمان، الناس فريقان: مؤمن وكافر، شتّان بين مؤمن وكافر، الله تعالى يحبّ لعباده الإيمان، إعلان الإيمان، يحكم على الناس بظواهرهم، تنبيه وعظة، المؤمن

الحق لا يتأثّر بإغراء ولا تهديد، المؤمن الحقّ يدعو إلى الإيمان بالحق، المؤمن معرَّضٌ للبلاء والفتن، المؤمن مأمور بالصبر، الإيمان منحة إلـهية للسعداء، الإيمان كلٌّ لا يتجزّأ، هل الإيمان يزيد وينقص؟ الإيمان يقوى ويضعف، مما يقوّي الإيمان، الخواطر لا تقدح بالإيمان، المؤمنون قلّة في الناس، لا يصاحب إلا المؤمن، الوعد الحسن للمؤمنين، الإيمان نصف البرّ، تخصيص المؤمنين بالنداء، المؤمن محسود، الحسد نوعان، النهي عن التهاجر بين المؤمنين، الأمر بالإصلاح بين المؤمنين، مثل المؤمن، لا يدخل الجنّة إلاّ مؤمن، من مظاهر الزيغ، إيمان اليأس مردود، تغرير الكافر بالمؤمن، الكافر عدو للمؤمن لدود، الصدّ عن الإيمان صفة الكافرين، نهي المؤمنين عن موالاة الكفار، المؤمن لا تضرّه سخرية الكافر، ترغيب الكافر بالإيمان، الإسلام يهدم ما قبله، المغفرة للمؤمن، الإيمان يأرِز إلى المدينـة، ذهاب الإيمان في آخر الزمان، الردّة عن الإيمان كفر، علّـة المسلمين اليوم ضعف الإيمان.

مـن خصائص الإيمان وعلاماتـه: قبـول ما جاء عـن الله ورسوله ﷺ، الاستجابة لله ورسوله ﷺ، الخضوع لحكم الله والرسول ﷺ، وجل القلب من الله، نسبة الأفعال كلها إلى الله، الثبات على الحقّ، خوف الآخرة، التوكّل على الله، التفكّر في خلق الله وعظمته، رقابة الله، اقتران الإيمان بالعمل الصالح، شدّة الحبّ لله، حب الرسول ﷺ، الأدب مع الرسول ﷺ، حبّ الأنصار رضي الله عنهم، الحبّ في الله والبغض في الله، موالاة المؤمنين، الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، الاتّعاظ والاعتبار، عمارة المساجد، الجهاد في سبيل الله، الأمانة والصدق ومجانبة الخيانة والكذب، الوفاء ومجانبة الغدر، حُسْن الخلق وترك ما لا يعني، الإنصاف من نفسه، الفرح بالحسنة، الفراسة الصادقة، القيام بالطاعات إيماناً واحتساباً، حبّ الخير، الإحسان إلى الجار، كفّ الأذى عن الجار، إكرام الضيف، وقول الخير، اجتناب لبس الحرير والذهب، اجتناب ترويع المسلم، التناصح، التراحم، التعاون على البرّ والتقوى، الألفة، حفظ العهد، الحياء، العفة والقناعة، الغيرة، انتهار صاحب البدع، حفظ اللسان، سلامة الصدر وحسن الظن، الاستسلام للمقادير الغالبة، الشعور بشعور

الآخرين، الصبر على الأذى، الفطنة والعقل، ما ليس من وصف المؤمن.

من ثمرات الإيمان: ولاية الله، نصره، ثناؤه، دفاعه، استغفار الملائكة ودعاء المؤمنين، نور القلب، سكينة النفس، الهدى إلى الحق، السلامة من الشيطان، البشرى والوعد الحسن، الفلاح في الدنيا والآخرة، ملاحظة هامّة، العزّة، النجاة في الدنيا والآخرة، سرعة المرور على الصراط، الأمن والفرح، نيل الخير في السرّاء والضرّاء، البركة في الرزق، المحبّة والودّ، التثبيت على الحقّ، المغفرة وتكفير السيئات، المشي في النور يوم القيامة، الشفاعة يوم القيامة، إلحاق ذرّية المؤمنين وأزواجهم بهم، الأجر الدائم والخلود في النعيم، نداء، دعاء.

٦ ـ الكفر والمكفّرات:

ونقرأ في هذه الرسالة معنى الكفر وأنواعه، قد يطلق الكفر على غير الكفر بالله، أصول الكفر، المكفّرات الاعتقاديّة والقوليّة والعمليّة، الشرك من الكفر، الشرك نوعان، مذمَّة الرياء، قد يفضي الرياء إلى استهزاء الناس، دواء الرياء، الناس فريقان: مؤمن وكافر، أكثر الناس كافرون، الكفر أعظم الذنوب.

النفاق أقبح أنواع الكفر، تعريفه، من أوصاف المنافقين: المكر والخديعة، التثاقل عن الطاعة، الكذب والحَلف الكاذب، من فضائح المنافقين: تخلّفهم عن الجهاد، اللمز بالصدقات، أذاهم للنبيّ ﷺ، الحذر من الفضيحة، الكذب، نقض العهد وإخلاف الوعد، مسجد الضرار، فتنة المنافقين، هربهم من الاحتكام إلى الله والرسول ﷺ، حرص النبيّ ﷺ على هدايتهم، مثل المنافق، من أقوال المنافقين الماكرة.

الردّة بعد الإيمان كفر، تحذير النبيّ ﷺ أمّته من الرجوع إلى الكفر، المرتدّ يُقتَل، المكره على الكفر ليس بكافر، وصف غير الله بالألوهية كفر، الكذب على الله كفر، البحيرة، السائبة، الوصيلة، الحامي، الكذب في الرؤيا، التلاعب بالحلال والحرام كفر، الحيل الشرعية، الحكم بغير ما أنزل الله كفر، الكفر بالجزء كفر بالكلّ، عمى الكافر عن آيات الله تعالى، الكفر بالله جهل

وحمق، التكذيب بالرسل ديدن الكافرين، إيذاء الكافرين الرسلَ، صور من أذى المشركين للنبيّ ﷺ، هجرة النبيّ ﷺ إلى الطائف، تكذيب الكافر بالقرآن، حجّة الكافر داحضة، ترغيب الكافر بالإيمان، لا عذر للكافر، شرّ الكفر يعود على صاحبه، الكافر في ضـلال، الكافر ممقوت، شـطط الكافر وعنـاده، التكذيب بـالمعجزات، معجزات أولي العزم من الرسل.

سخرية الكافر من المؤمن، الكافر لا ينفعه عمر، لا ينفع الكافر عظة، الكافر في غرور، استدراج الكافر، تغرير الكافر بالمؤمن، الكافر مغلوب منهزم، الغلظة على الكافرين، إعلان البراءة من الكافرين، الكافر لا يطاع، النهي عن القعود مع الكافرين وموالاتهم، ملاحظة، عداوة الكافر للمؤمن، مثل الكافر، الكافر شـرّ الدوابّ، الله تعالى يمهل الكافرين، على الكافر اللعنة، رأس من يستحق اللعنة إبليس، ما يجوز لعنه، ما لا يجوز لعنه، الكفار يلعن بعضهم بعضاً، نقمة الكافر على من أضلّه، الشيطان يورط في الكفر، الكافر محروم من المغفرة، النهي عن التشبّه بالكافر، النهي عن الاستغفار للكافرين، تكذيب الكافر بالآخرة، حكّموا العقل السليم، سبب تكذيب الكافر بالآخرة، ندامة الكافر في الآخرة، من وعيد الكافرين وتهديدهم، تشهد على الكافر أعضاؤه، عاقبة الكافر النـار، النـار وأبوابها وأوصافها، من صفة أهل النار طعام أهل النار وشرابهم، أهون أهل النار عذاباً، نداء، دعاء.

على أنَّ من أهمّ ما يسترعي الانتباه في سلسلة العقائد ـ وغيرها من كتبه ـ ما سجّله من تجاربه وحواراته في العقيدة، وأسلوبه العقليّ المقنع، لتوضيح الحقائـق، وإقامـة الحجّـة، ودفع الشـبهات، فنقرأ في كتـاب الإيمان بالله: (حديث مع طالب) حول استحالة المصادفة في خلق الكون، ونَقرأ في كتاب: (الإيمان بالملائكة) موقفه من تحضير الأرواح، وتجربته المثيرة في ذلك، وهي تجربة تستحقّ الوقوف عندها، كما نقرأ في كتاب (الإيمان باليوم الآخر): (بيني وبين طالب)، وذلك في حوارٍ حول الجبر والاختيار.

* * *

٨ ـ سلسلة (من هدي الإسلام)

كلمة حول هذه السلسلة:

موضوعات هذه السلسلة كلّها ممّا ألقاه الشيخ في دروسه الأسبوعيّة العامّة، التي كان يحضرها مئات من الشباب والرجال، وعدد من النساء، وقد انتفعَ بها خلقٌ كثير بحمد الله تعالى، وهي تدور حول أمور دعويّة وتربويّة، كان يرى أنّ الحاجة لتوضيحها وبيانها ماسّةٌ، وقد بنى الحديث فيها على الاختصار غير المخلّ، ولم يرَ الدخول في تفصيلات وشرح مُسْهب، قد يُخرج الموضوع عن أن يكون رسالة موجزة إلى أن يكون سفراً كبيراً، ممّا قد تقعد الهمم عن اقتنائه والصبر على مطالعته، وإن كنتُ أتمنّى ـ وقد يتمنّى غيري كذلك ـ لو فصّل القول في بعض الموضوعات بأسلوبه البيانيّ البليغ الجميل، ليعطى الموضوع حقَّه، ويؤدّي هدفه على أكمل وجه. .

ولو وضعنا لهذه السلسلة عنواناً: (مفاهيم قرآنية) لما أبعدنا في القول، وذلك لما نرى فيها من تتبّع الشيخ للنصوص القرآنية وكثرة استشهاده بها، ولكنّ العنوان الذي اختاره لها الشيخ لا شكّ هو أعمّ وأرجح، فهو شامل لما جاء في السنّة النبويّة المطهّرة، ومتتبّع بدقّة لما جاء فيها من الهدي النبوي في الموضوع الذي يتناوله، كما أنَّ العنوان الآخر أقرب إلى الدراسة العلميّة الموضوعيّة منه إلى الكتابة التوجيهيّة التربويّة.

ونقف وقفة عند كلّ رسالة من هذه الرسائل نبيّن أهمّية موضوعها، وطريقته في تناوله.

١ ـ شؤم المعصية وبركة التقوى:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (١١١).

عنوانٌ جميلٌ جامعٌ معبّر، يكاد أن يكونَ من جوامع الكلم، فما أكثر ما يقترف الإنسان المعصية لأنّ النفس الأمّارة بالسوء تلحّ عليه في إتيانها، والشيطان يزيّنها في نفسه حتى يراها سرّ سعادته في الحياة كلّها. . كما وقع لأبينا آدم عليه السلام! وما أكثر ما يقصّر الإنسان في الطاعة والتقوى، لغفلته عمّا فيها من الخيرات والبركات، ويضع له الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء في طريقها العقبات تلوَ العقبات، فيحرم نفسه من ثمراتها وبركاتها. .

والكلام تحت هذا العنوان أشبه برؤوس الأقلام لمن يلقي دَرساً أو محاضرة، فنقرأ في عناوين هذه الرسالة: **من شؤم المعصية وآفاتها**، عصمة الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام، حفظ الله تعالى بعضَ أوليائه، المخلّطون، العصيان صفة الشيطان، النفس أمّارة بالسوء، النهي عن المعصية، المعاصي كبائر وصغائر، انقلاب الصغيرة إلى كبيرة، من الكبائر، مضاعفة الإثم، من آفات المعاصي، ماذا يكفّر الخطايا؟ التوبة، لا ينبغي القنوط، شروط التوبة، الاستغفار. **بركة التقوى**: من بركات التقوى وثمراتها، ما هي التقوى؟ مراتب التقوى، العبادات عون على التقوى، التقوى علامة الإيمان، التقوى من منح الله تعالى لعباده، من ثمراتِ التقوى. **الورع**، كيف اهتدى الورِعون إلى دقائق الوَرَع؟ ممّا يعين على تقوى الله عزَّ وجلّ.

ولا أشكّ أنَّ الشيخ لو أطلق العنان لقلمِه في بيان العناوين وشرحها لكان منها سِفْرٌ كبيرٌ، ولكنّه أراد لرسالته أن تكون تذْكرة جامعة، أشبه بحبّة الدواء المنشّطة المغذّية، فهي تقدّم للإنسان من الغذاء المقوّي لصحّته، المنشّط لجسمه، ما لا يستطيع تناوله من مصادره في يومٍ أو أيام. .

على أنّ أجملَ ما في هذه الرسالة هو حديث الشيخ عن الورع، الذي هو أعلى درجات التقوى، وما ذكره من نماذج من ورع السلف الصالح، بدءاً من ورع النبيّ ﷺ إلى ورع أصحابه الكرام رضي الله عنهم، ثمّ ورع مَن تبعهم بإحسان. . ثمّ إجابته عن سؤال وإشكال يرد على خواطر بعض الشباب: «**كيف اهتدى الورِعون إلى دقائق الوَرَع؟**».

٢ ـ هذا الإنسان:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (١٦٠).

ما أجهل الإنسان بنفسه، ومن ثمّ فما أجهله بربِّه! **(فمن عرف نفسه فقد عرف ربّه)**[١].

نفس الإنسان أقرب شيء إليه، ومع ذلك يجهلها، ولا يحرص على معرفتها، ويقوده الجهل بها إلى أن يحتقر نفسه، فيستهين بوجودها في هذه الحياة، ويظنّ أنّه خلق عبثاً، أو أن يترك سدىً. . أو يذهب بها تيهاً وكِبراً، وطغياناً وكفراً، فيقول: أنا ربّكم الأعلى؛ بلسان الحال أو لسان المقال. . فيظلم نفسه، ويوردها موارد التهلكة والبوار. .

ولذا فإنَّ حقّاً على الدعاة إلى الله أن يخاطبوا الإنسان كما خاطبه القرآن الكريم، فعرّفه موقعه في هذا الوجود، وخطر المسؤولية التي أُنيطت به، وكشف له عن طبيعة نفسه، ودخيلة خلائقه وصفاته، وسبب جحوده وطغيانه، ووضّح له سبيل سعادته في الحياة الدنيا، ونجاته في الآخرة. . باتّباع دين الله تعالى، والالتزام بمنهجه في الحياة. .

ولعلّ هذا ما أراده الشيخ من كتابة هذه الرسالة، فقد تتبّع ما جاء من

---

(١) وهذا القول وإن لم يصحّ حديثاً، وهو من قول: يحيى بن معاذ الرازيّ رحمه الله تعالى، كما في كشف الخفاء: ٢/ ٣٤٣، ولكنّ معناه صحيح غاية الصحّة، فما رأينا من تطاول على ربّه، وألحد في دينه وآياته إلا من كان على جهلٍ كبير بنفسه، وغرور يملأ عطفيه، ويطمس قلبه، وما رأينا من عرف نفسه حقّ المعرفة بالضعف والحاجة، والفقر والقلّة إلاّ عرف ربّه بالقوّة والعزّة، والفضل والغنى عن عباده، ونجد مصداق ذلك في قول الله تعالى: ﴿ ۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وصف الإنسان في القرآن الكريم، ووضّح ما تحمله تلك الآيات من حقائق ومعانٍ على طريقته في الإيجاز والاختصار، وركّز الاهتمام على بدء خلق الإنسان، وما يحمله كيانه من طبيعة كشف عنها القرآن، ثمّ كان ختام كتابه قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

٣ ـ الدعوة إلى الإسلام وأركانها:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (١٩٩).

ابتدأ الشيخ كتابه بتمهيد عن: **(الدعوة إلى الإسلام)** عرض فيه (حالة الناس قبل الإسلام)، (وبدءْ الإسلام غريباً)، ثم **(ظهور الإسلام وعزّته)**، ثم **(عودة الإسلام غريباً كما بدأ)**، ثم تحدّث عن: **(ضرورة العمل لخدمة الإسلام)**، وتساءل: **(كف ينصر الإسلام؟)**، فبيَّن الطريق إلى ذلك، ثم بيّن كيف تتحقّق الفكرة الدعوية العملية التي يراها سبيل الدعوة إلى الإسلام ونصرته، ثم ختم حديثه بنداء إلى الإخوة العاملين للإسلام حيث كانوا..

ويتجلّى في هذه الرسالة من رسائل الشيخ حماسة الداعية الشابّ، المتَوقّد حماسةً وحميّة لدينه، وذلك أنّه كتبه أوّلَ بدْئه بجمع الشباب على فكرة الدعوة التي آمن بها، وهي التي وضّح أركانها ومعالمها في رسالته هذه، بصورة موجزة، ولكنّها واضحةٌ بيّنةٌ، وقد سبق لنا أن قدّمنا في الفصل الأوّل نصوصاً من كتابه عن كلّ ركن من هذه الأركان، فلا نجد ما يدعو إلى استعراض موضوعات الكتاب مرّة أخرى..

٤ ـ من محاسن الإسلام:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (٢١٥).

أستطيع القول: إنَّ هذا الكتاب يُعدُّ انعكاساً لشخصيّة الشيخ المعتزّة بالإسلام إلى أبعد حدّ، الداعية إلى ذلك في كلّ ما تكتب، ويتجلّى لنا ذلك في

الأفكار التي يطرحها بقوّة، وبصورة يشعر معها القارئ بالحماسة تتدفّق من بين عناوين الكتاب وسطوره، وتأمّل معي أخي القارئ هجوم الشيخ على موضوع كتابه من دون أية مقدّمة، وكأنّه يستبق زمناً يخشى فوته، فبعد البسملة يضع عنواناً: (معنى الإسلام)، ويقول مباشرة: «الإسلام معناه الخضوع لله تعالى، والاستسلام لأحكامه، فالمسلم الحقّ يعمل بأمر الله عزَّ وجلّ، ويخضع لأحكامه، ويحتكم إليه في جميع أموره. . » ويستشهد ببعض الآيات ثمّ يقول: «وعلى هذا درج المسلمون الأوّلون رضي الله عنهم، فأطاعوا الله ورسوله ﷺ، في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، تلقّوا الأوامر للتنفيذ، وتعلّموا الأحكام للعمل.

فما أمروا بشيء إلاّ استجابوا، ولا نُهوا عن شيء إلاّ اجتنبوا، ولا نزل فيهم حكمٌ من الله ورسوله ﷺ إلاّ استسلموا إليه راضين، وعملوا به مذعنين. . أمرهم بالتوحيد، فهدموا الأصنام، وعبدوا الله وحده. وعرض عليهم الصلاة؛ فأقاموها، وأمرهم بالزكاة فأدّوها، وبالإمساك عن شهوات النفس في الصيام فأمسكوا، وبالتجرّد لله تعالى في الحجّ فتجرّدوا، وببذل الأموال والأنفس في سبيل الله فبذلوا. . ونهاهم عن الخمر فأراقوها، وعن الفحشاء فاجتنبوها، وعن الربا فتركوه، وعن الميسر فمنعوه. . لم يعتذروا عن شيءٍ من ذلك بما ألفوه من عوج، ولم يجدوا في امتثال الأمر، واجتناب النهي من حرج. . ».

ثمّ ساق أمثلة ونماذج من دقّة اتّباع الصحابة وطاعتهم لله والرسول ﷺ. . ثمّ قال: «هكذا كان انقياد المسلمين الأوّلين لأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ، عملوا بالإسلام كاملاً، فقطفوا ثماره يانعة، وبرز المجتمع الإسلاميّ الصالح، وتمّ ظهور الإسلام كاملاً على أيديهم، ورفعوا لواءه عالياً، وأشرقت شمسه على العالم. . . ».

ويقول تحت عنوان: (الإسلام دين المدنيّة الحقّة): «الإسلام يرافق العقل جنباً إلى جنب، ويمشي مع المدنيّة في طريق واحد، وقد نهض بالإنسانيّة من حضيض الهوان إلى أوج العزّة والشرف، وأخذ بيد الضعيف حتّى أنقذه من

الظلم والعسف . . ».

«والإسلام الحنيف روح المدنيّة الحقّة في كلّ زمان ومكان، ودين مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . . ».

ثم تحدّث عن العبادات في الإسلام، وبيَّن بعض حكمها وأسرارها، وفضائلها وآثارها، ثمّ عن الأعياد في الإسلام.

وتحت عنوان: (الإسلام والفضائل)، نقرأ الموضوعات التالية: الإسلام دين المراقبة والإحسان، الإسلام دين الوحدة الأخويّة بين المؤمنين، الإسلام دين المحبّة والوئام، الإسلام دين العدل والمساواة، الإسلام دين النظام والانتظام، الإسلام دين الشعور بالمسؤولية، الجهر بالحقّ والثبات عليه، الإسلام وأحكام الحلال والحرام، في الحلال ما يغني عن الحرام، الورع، الإسلام والمرأة، وقد أسهب في الحديث عن المرأة، فأخذ حديثه عنها خمساً وعشرين صفحة، فتحدّث عنها بنتاً وزوجةً وأمّاً، ثمّ بيَّن أثرها في المجتمع، وردّ شبهات أعداء الإسلام عن الطلاق، وتعدّد الزوجات، والحجاب، ثم تحدّث عن الحدود وحكمة مشروعيتها . .

٥ ـ الفتن:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (٢٢٩).

أحدثت دعوة الشيخ في كثير من الأسر ضجّةً ليست بقليلة: فهذا شابّ يلتزم بدينه، فيحارَبُ مِنْ أقرب الناس إليه، وهذا طالب يضيّق عليه في مدرسته أو جامعته لتمسّكه بدينه، وهذه فتاة تريد التمسّك بدينها، والالتزام بأوامر ربّها، فترى المعارضة والمنع من أمّها وأبيها، وهذه امرأة يعارضها زوجها في ارتداء الحجاب، والامتناع عن لقاء الأجانب، وهذا رجل يلقى عنتاً من زوجته في التمسّك بدينها، وفي تربية أولاده على المنهج الذي يرضي الله ورسوله ﷺ.

وكان الشيخ يترامى إلى سمعه صباح مساء أخبار ذلك، فيكثر من وصيّة

إخوانه بالصبر، والثبات على الحق، ومعالجة الأمور بمنتهى الحكمة، والدفع بالتي هي أحسن، ومضاعفة البرّ بالوالدين مهما صدر منهما . .

وكان الحثّ على الحكمة والصبر، لا بدّ له من وقود وزاد من الثقافة الشرعيّة الراسخة، التي تكون خير عونٍ للمؤمن على مواجهة هذه الشدائد . .

وإلى هذا، فقد شاع في الأوساط الثقافيّة المعاصرة موجة من الحديث عن فتن آخر الزمان، بصورة جاهلية منحرفة، وكانت على مستويين:

ـ مستوى فهمٍ عاميّ جاهل، يدفع إلى الكسل والتواكل، وترك التذكير والدعوة، ويحثّ الناس على عدم إتعاب النفس في نصح الناس وتذكيرهم، أو بذل الجهد في تصحيح أوضاع، إنّما تجري بقدر الله تعالى ومشيئته ـ وهي كلمة حقّ في غير محلّها ـ فمن يسعى في إصلاح الناس إنّما في حقيقته في نظر هؤلاء يعترض على الله تعالى .

ـ والمستوى الثاني: مستوى مثقّف ثقافة دينية محدودة، وهو من نوع الإخباريّين، يهتمّ بإشاعة ما ورد من أحاديث الفتن في آخر الزمن، ونشرها بين الناس، على أنّ هذا وقتها، ممّا يوحي باليأس من دعوة الناس، والإغراء بالاعتزال عنهم، واليأس من إصلاحهم، وأنّ ذلك نوع من العبث، وتضييع الوقت من غير جدوى أو فائدة . .

وإذا كان الشيخ إنساناً عمليّاً، يحمل فكرةً دعويةً، ويكتوي بآلام البناء والتربية، ويحرص على تصحيح المفاهيم، وإزالة ما علق بها من غبش وسوء رؤية، فقد نظر في كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ، فرأى أنّ حديث القرآن والسنّة عن الفتنة يختلف عمّا شاع بين الناسِ وانتشر، حتّى أصبحوا لا يعرفون منها سوى ذلك، فكتب كتابه هذا، ولم يتحدّث فيه عن فتن آخر الزمن إلاّ بما يعرّف بها كنوع من أنواع الفتن، التي تخصّ الإنسان نفسه، وسيسأل عنها بين يدي ربّه . . .

٦ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (١٨٩).

كان من أهمّ تحليل الشيخ لعلل المجتمع وأمراضه كما مرّ بنا: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو كما يقول: «ركن عظيم من أركان الإسلام، ولا بقاءَ للإسلام إلاّ به، وبهذا الإهمالِ استرسلَ العصاةُ في معاصي الله، بلا آمرٍ، ولا ناهٍ، ولا رادعٍ، ولا زاجرٍ، وبهذا انسلخ المسلمون عن وصف الخيريّة، التي وصفهم الله بها..

فشتِ المنكرات في المجتمع الإسلاميّ حتّى لو مشى إنسانٌ من بلدٍ من بلادهم، أو شارع من شوارعهم، لم يرَ عليه مسحةَ الإسلام، ولا معانيَ الإسلام.

فلو أنَّ المسلمين وقفوا سدّاً منيعاً أمام كلّ معصية ومخالفة، فأمرُوا بالمعروف، ونَهوا عن المنكر، لَسَلِمَ مجتمعُهم من هذه الشرور التي وصل إليها بسبب الرضا والسكوت والتعامي..»[١].

ويبدأ الحديث بتعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان فضيلتهما، وما جاء في نصوص الشرع من الأمر بهما، وأنّ فيهما السلامةَ في الدنيا، والنجاةَ في الآخرة، ثم تحدّث عن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضرورة التزام الآمر بها كيلا يقود أمره إلى خلاف مراد الشارع، أو يؤدّي إلى منكرٍ أكبر، ثمّ يبيّن مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجيب عن إشكال: «هل ينكر الولد على الوالدين؟» وهو إشكالٌ يرد في أذهان كثير من الأبناء المهتدين، وربّما أخذت بعضهم حماسة دينيّة أو غيرة، فاندفع متجاوزاً حدود ما أمر الله، ممّا يجب عليه من البرّ بوالديه، أو أحدهما، ثمّ يعرّج إلى الحديث عن أهمّ آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من العلم

---

(١) مقدّمة الطبعة الثامنة من رسالة: (سبيل الهدى والعمل)، ص٢٢.

والورع، وحُسن الخلق، وتقليل علائق الدنيا.

ويقف عند الإخلاص وقفات مضيئة، ويذكر قصّة مسلمة بن عبد الملك، وصاحب النقب، وقصّة العابد والشجرة، وهي قصّة رمزيّة معبّرة، ثمّ يتحدّث عن بعض المعروف الذي يجب الأمر به، وأهمّ المنكرات الفاشية، التي يجب إنكارها، وعدم السكوت عنها، وعدَّد منها: الجهل بما يجب لله تعالى من الصفات، والخوض في موضوع القضاء والقدر، والتشاؤم بالزمان والمكان، وتعليق التمائم، والاستهزاء بطاعةٍ من الطاعات، وتكفير المسلمين بالتوسّل، والطعن بسلف هذه الأمّة الصالح، والخروج على فقه الأئمّة الأربعة، وترك الحكم بما أنزل الله تعالى، والتعامل بالربا، وشيوع الخمر والميسر واليانصيب، وتبرّج النساء وسفورهنّ، وما يقود إليه من الزنى، والعزف على آلات الطرب والغناء المحرّم، وتقليد الأجانب، وإهمال الرجال رعيّتهم من النساء والأولاد، والجهل بأحكام العبادات.

ثمّ اتّبع أسلوب الإمام الغزاليّ رحمه الله تعالى في إحياء علوم الدين[1]، إذ عدَّد منكرات المساجد، والأسواق، والشوارع، والضيافة، والحمّامات العامّة، وهي لا تزال قائمة في عدد من بلاد الشام.

ثمّ ذكر مُثُلاً عليا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مواقف من حياة السلف الصالح، وما كانوا عليه من عزيمةٍ راسِخة، تستنهض همم الدعاةِ إلى الله تعالى في كلّ عصر وجيل للقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثمّ ختم كتابه بكلمة في (هجر العصاة إذا لم يستجيبوا للأمر والنهي)، فقال: «وهي وسيلة تأتي بعد محاولة النصح، والتودّد والتحبّب، والإكرام والتلطّف، فإذا لم يستجب العاصي لأمر الله فماذا على المسلمين أن يغضبوا لله، ويهجروا في الله؟!».

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي: ٣/ ٣٣٥.

٧ ـ القلب: مكانته، أحواله، مرضه، شفاؤه:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (٢٣٢).

أصل هذه الرسالة كلمة موجزة كانت بعنوان: (القلب: داؤه ودواؤه) نشرها أوّلاً بصورة محدودة، ثمّ توسّع فيها لتكون رسالة جامعة.

وقد جعل شعار هذه الرسالة ومدار الحديث فيها على قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: ٣٧]، وقول النبيّ ﷺ: «... **ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»[1].

فبدأ بتعريف القلب، وبيان مكانته، وأنّ القلوب بيد الله تعالى يقلّبها كيف يشاء، وهو وحده سبحانه المطّلع على ما في القلوب، وأنّ القلب هو موضع الوحي والإيمان، وهو موضع الكفر والنفاق، وأنَّ القلب موضع النيّة والإخلاص، وأنَّ مدار الأفعال والأقوال والقبول عند الله على ما في القلب من نيّة، ثمّ ذكر بعض الأمثلة والنماذج، ثمّ بيّن أنّ القلب هو موضع الأمانة، وموضع التقوى، وذكر بعض مظاهر تقوى القلوب، ثمّ بيّن أنّ القلب موضع الذكرى، وهو موضع المحبّة والبغض والكراهية، ثمّ تحدّث عن مرض القلب وزيغه، وعدَّد علامات ذلك كما جاءت في القرآن الكريم، ثمّ عدَّد آفات القلب بطريقة استقصائيّة مستوعبة، فذكر هذه الآفات ومظاهرها، والدليل عليها من الكتاب والسنّة، ثمّ بيَّن دواءها باختصار وإيجاز، ينفع العامّة ويغنيهم، ولا يستغني عنه الخاصّة، ثمّ ذكر طرقَ تهذيب النفس وشفاء القلب، ونقل كلام الإمام الغزاليّ، كما جاء في كتابه: (إحياء علوم الدين)[2].

---

(١) جزء من حديث عليه مدار الإسلام، وأوّله: إنَّ الحلالَ بيِّنٌ، وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ... رواه البخاريّ ومسلم.

(٢) ٣/ ٦٤.

ثمَّ تحدَّث عن رقَّة القلب وأهمّيتها في حياة المؤمن، وبعض مظاهرها، ثمّ تناول قسوة القلب وخطرها على إيمان المؤمن ودينه، وذكر بهذه المناسبة قصّة توبة عبد الله بن المبارك رضي الله عنه، وقصّة توبة الفضيل بن عياض رضي الله عنه، وما فيهما من عبرة وعظَة، ثمّ تحدَّث عن وجل القلب، وذكر بعض كلام السلف في الخوف من الله تعالى، ثمّ تحدّث عن جنود القلب وإلهامه ووسوسته وتقلّبه، وحذّر من تقلّبه، وذكر بعضَ المشاهدات المحسوسة في ذلك، ثمّ ذكر أنواع القلوب، وفتنة القلب، والختم على القلب، وذكر بهذه المناسبة عشرَ صفحات وصف بها قلب الكافر في القرآن الكريم، وختم الكتاب أخيراً بدعاء طويل بلغَ ثلاث صفحات، وكلّه ممّا ذكر فيه القلبَ.

٨ ـ منهاج التربية الصالحة:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (١٨٧).

التربيةُ الصالحة كانت هاجس الشيخ، وشغله الشاغل، وهمّه المقيمَ المُقعِد، كيف لا؟ وهو يرى أنَّ فساد الشباب وانحرافهم إنَّما سببه إهمال التربية، وتخلّي المربّين عَنْ مسؤولية الرعاية والقوامة التي كلّفهم الله بها، يقول وهو يتحدّث عن علل المسلمين وأدوائهم: «أهمل المسلمون أمر بيوتهم ونسائهم وأولادهم، فنشأ الأطفال متهاونين بفرائض الله، جرآء على معصية الله، إذ تربّوا عليها، وعرفُوها وأَلِفُوها، ومن شبَّ على شيءٍ شابَ عليه، وبهذا كثرَ سواد العاصيْنَ في المجتمع المسلم»[1].

وقد كتب هذا الكتاب، فكان تسجيلاً دقيقاً لخلاصةِ تجربةٍ مديدةٍ من العملِ التربويِّ الدؤوب في مجال التعليم في المدارس، وفي ميدان رعاية أسرته وأولاده، وتربيتهم على منهجٍ إسلاميٍّ متكامل، يشمل جميع جوانب حياة الإنسان: العقليّة، والنفسيّة، والروحيّة، والجسميّة، وقد كان رائده فيما كتب

(١) مقدّمة الطبعة العاشرة من: سبيل الهدى والعمل، ص٢٣.

تتبّع ما جاء في كتاب الله تعالى، وسنّةِ نبيّه ﷺ، وهدي السلف الصالح، وما أرشد إليه أئمّة التربية الإسلاميّة كالإمام الغزاليّ رحمهُ الله من توجيهاتٍ وملاحظات.

ومن أهمّ ما نقرأ في هذا الكتاب: «منّة الله تعالى على الآباء بنعمة الأبناء، الحذر من تعلّق القلب بالأولاد، الأمر بحسن تربية البنين والبنات، ما جاء من أخبار عن طُفولة النبيّ ﷺ، وعناية الله تبارك وتعالى به، مَثَلٌ أعلى في نباهة الأطفال، مَثَلٌ أعلى في شجاعة الأطفال، مَثَلٌ أعلى في تلقين الأبناء الثبات على الحقّ، من عظات الآباء للأبْناء والأطفال ووصاياهم».

ثم تحدَّث بتفصيل دقيق عن (الطريق القويم للتربية)، فذكر مقدّمات، وما يُفعل بالوليد بعد ولادته، ثمّ ما يُراعى بعد ذلك: في سنّ التمييز، ثم في سنّ المُراهقة، ثمّ بعد البلوغ، ثمّ تحدّث عن المَثَل الأعلى الذي ينبغي أنْ يُغرس في نفس الناشئ التطلّع إليه، ثمّ تحدّث عن القدوة الحسنة وأهمّيتها في حياة الطفل، وعن رحمةِ الآباء والأمهات بالأولاد، ودلّل على ذلك منَ المواقف النبويّة، وبيّنَ ما جاء في السنّة من خصوصيّة البنات، وتحدّث عن النفقة على العيال، ومسؤوليّة الإنسان عن تضييع مَنْ يعول، والنَّهي عن قتل الأولاد، ثم تحدَّث عن برّ الأبناء بالآباء، فعرَّف البرّ والعقوق، وذكر صوراً من العقوق، وبعض أنواع البرّ، وحذَّر من ضلال الأبناء بضلال آبائهم، ثمّ ختم الكتاب ببيان إلحاق الذريّة الصالحة بالآباء الصالحين..

ثمّ كان ختام المسْك أدعية مأثورة مباركة، لها تأثيرها العميق في توجيه فكر المؤمن، وتحريك مشاعره، وتحفيز سلوكه، إلى أن يتطلّع إلى ما يُرضي الله تبارك وتعالى، من خلال العلاقة بوالديه وأولاده، وزوجه وذريّته.

٩ ـ فضيلة الدعاء والذكر:

وهو مطبوع في قسمين.

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد صفحات القسم الأول (١٨٤)، وعدد صفحات القسم الثاني (١٤٨).

لعلَّ هذا الكتاب هو امتداد وبيان للركن الرابع من أركان الدعوة إلى الإسلام، وهو ركنُ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلّ، الذي تحدَّث عنه في كتاب: (الدعوة إلى الإسلام وأركانها)، فأراد الشيخ تفصيل هذا الركنِ، والتأكيد على أهميّته، فألّف هذا الكتاب الجامع.

وقد تحدّث في القسم الأوّل منه عن فضيلة الدعاء، وأنّه من أنواع الذكر، وفي القسم الثاني تحدّث عن الأدعية والأذكار في الليل والنهار.

ففي القسم الأوّل استعرض طرفاً من أدعية الملائكة، وأدعية الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، ثمّ ذكر بعض المعاني الواردة في السنّة ممّا يختصّ بالدعاء وفضله، ثمّ تحدّث عن آداب الدعاء، فعدَّد أربعةَ عشرَ أدباً، ودلَّل عليها ووضّحها، ثمّ نقل بعض أدعية السلف الصالح، وتحدَّث عن الدعاء والتوسّل بصالح العمل.

ثمّ ذكر فضل الذكر وأنواعه، فتحدَّث عن الاستغفار والتسبيح، وذكر نماذج من تسبيح الله تعالى ذاته المقدّسة، وتسبيح ملائكته ورسله، وتسبيح كلّ شيء بحمد الله تعالى، وتسبيح أهل الجنّة، وبعض الصيغ الواردة في التسبيح.

ثمَّ عرَّف الحمدَ وبيَّن فضلَه، وأهمّ صيغه في الكتاب والسنّة.

ثمَّ تحدَّث في القسم الثاني عن الأدعية والأذكار في الليل والنهار بتفصيل دقيق شامل، وكان عمدته في ذلك كتاب: (الأذكار) للإمام النوويّ رحمه الله تعالى، الذي هو أشهر كتاب في هذا الباب وأوسعه.

١٠ ـ الحقّ والباطل:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (٦٤).

وهي رسالة لطيفة الحجم، ولكنّها جامعة فذّة تأخذ المؤمن في سياحة سريعة، كما نلاحظ في عناوين موضوعاتها، وكأنّها تقدّم له لقطات حيّة من حياة الفريقين اللذين يتوزّعان الجنس البشريّ: فريق الجنّة وفريق السعير..

ونقرأ في **هذه الرسالة الموضوعات التالية**: الرسل دعاة الحقّ، الله الهادي إلى الحقّ، الصراع بين الحقّ والباطل، لا تزال طائفة على الحق، مثل الحقّ والباطل، الظنّ لا يغني من الحقّ، مذمّة كتمان الحقّ، الحقُّ أحقُّ أن يتَّبَع، مكابرة أهل الباطل، مذمّة الإعراض عن الحقّ بعد ظهوره، لطيفة، جزاء المعرض عن الحقّ، الالتزام بمبدأ الحقّ، الانحراف عن الحقّ، التنافر بين الحقِّ والباطل، من مواقف أهل الحقّ، الحقُّ يعلو، النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، الحكم بالحقّ، والله يقضي بالحقّ، ندامة أهل الباطل.

١١ ـ التوبة:

وهو مطبوع في قسمين.

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد صفحات القسم الأول (١٢٧)، وعدد صفحات القسم الثاني (١٧٦).

التوبةُ إلى الله تعالى ركنٌ من أركان السير إليه سبحانه، لا ينفكُّ عنها حال المؤمن في بدايته، وخلال سيره وطريقه، وفي نهايته إن صحّ أنّ له نهاية. .

يقدّم الشيخ للحديث عن التوبة بأمرين مهمّين:

الأمر الأول: الحديث عن عصمة الملائكة والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وعن حفظ الله للصالحين من المعاصي.

الأمر الثاني: الحديث عن ورع السلف الصالح، وبعض العلماء المعاصرين.

وعندما يتحدّث عن عصمة الملائكة والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وعن حفظ الله للصالحين من المعاصي، فكأنّه يقول للقارئ الفَهِم: إنَّ عليك إن لم تكن منهم أو مثلهم أن تتشبَّه بهم، وتسمو بهمّتك عن أنْ ترضى لنفسك مستنقعَ المعاصي والسيّئات. .

ورفعاً لهمّة القارئ، وشحذاً لعزيمته، فإنَّه يقدّم له نماذج كثيرة من ورع السلف الصالح، وبعض العلماء المعاصرين، وبعدهم عن الشبهات، ولو كانت

يسيرة، تعظيماً لله تعالى، وخوفاً من الوقوع فيما هو أقرب إلى الحرام. .

ثمَّ يتحدَّث الشيخ عن معنى التوبة، وعن شروطها، وعن الأمر بها، والحضّ عليها، وفرح الله تعالى بتوبة عبده، وتهديد المعرضين عنها، ثمّ مذمّة الإصرار على المعصية، وأنواع المعاصي، وبم تنقلب الصغيرة إلى كبيرة، ثمّ يذكر بعض ما جاء عن السلف في التوبة، ثمّ يتكلّم عن التوبة النصوح، وأهمّ البواعث عليها، ويذكر بهذه المناسبة حديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه، وأهمّ ما يُستفاد منه، وأهمّ علامات قبول التوبة، ومن مظاهر الرحمة الإلـٰهية بالعباد.

ثمَّ يتحدَّث عن الاستغفار وأهمّ ثمراته، وسيّد الاستغفار، ثمّ يتحدّث عن أوقات الإجابة وأماكنها، ثمّ يذكر أهمّ مكفّرات الخطايا وأسباب المغفرة، والخصال الصالحة المكفّرة للذنوب، ويتوسّع في ذلك ويستفيض، مع الأدلّة الشرعيّة المناسبة، ثمّ يذكر كفّارات العوارض من لغو المجلس، والغيبة وفتنة الرجل في أهله، ثمّ يذكر الأذكار المكفّرة للذنوب، ثم يستعرض أنواع المكفّرة للسيئات، وهي: الطاعات، والبلايا والمصائب، والكفّارات الواجبة، والحدود الشرعيّة، ثم يتحدَّث عمّا يجب على المؤمن أن يجتنبه من مبطلات الأعمال، ويعدّد ما يصل إلى الميّت من أجرٍ وثواب للأعمال الصالحة، ويختم الكتاب بنداء يوجّهه للمؤمنين، يحثّهم فيه على تحقيق التوبة بشروطها وأركانها، وتجديدها دائماً، ليكونوا من السعداء المحبوبين، ويخاطب المفرّطين في جنب الله:

«أيها المفرّطون في جنب الله! دموع الندم تغسل دنس المعاصي، وتمحو ما علق في النفس من أوضار الآثام.

والاستغفار، ولا سيّما في الأسحار يغسل من القلب سواد المخالفات، ويمحو ران الغفلات.

بادروا إلى التوبة النصوح، فإنَّ باب التوبة مفتوح، واحذروا التسويف، فإنَّ الموتَ يأتي بغتة. . . والله تعالى وليّ التوفيق.

١٢ ـ العمل الصالح:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (١٩٢).

من خلال مقدّمة الشيخ لهذا الكتاب نستطيع أن نستنتج أنّ الرسالة التي يريد توصيلها للمسلمين: أنَّ العمل الصالح هو السبيل لاستعادة الأمّة عزَّها المفقود، ومجدها الضائع، لأنَّ «سلف هذه الأمّة سعدوا بالأعمال الصالحة، ونعموا بالأخلاق الكريمة، وسعد بهم العالم أجمع، حتى انتشروا فيه انتشار العافية في الجسد المريض، وحلّوا في بقاعه حلول المطر في الأراضي العطشى الجديبة، وأناروا للناس سبل الحياة السعيدة الرغيدة، وهدوهم فيها إلى معارج الكمال الإنسانيّ المنشود.

فكانوا شموس الهدى الساطعة، والمنار الهادي لكلّ بصير.

وطيَّبوا بقاع الأرض بما نشروه فيها من الهدي الكريم، وما رسموه من السير المستقيم، حتّى كانوا طيبها العابق، وزهرها الفوّاح.

وصحف التاريخ ملأى، بالأعمال الجليلة، والآثار الباهرة..

يحدّثنا التاريخ أنَّهم كانوا عبّاداً في الليل، فرساناً بالنهار..

لم يتركوا ميدان سبق إلاّ استبقوا إليه فسبقوا، ولا مجال خيرٍ إلاّ أسرعوا إليه وابتدروا، ولا موطن بذلٍ إلاّ جادوا فيه وبذلوا..

وبهذا قطفوا ثمراتٍ يانعةً من عملهم الصالح، فحازوا معيّة الله الخاصّة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]».

ومن أهمّ الموضوعاتِ التي نقرؤها في هذا الكتاب: شعار المؤمن الطاعة، التحذير من طاعة أهل الضلال، الاعتصام بالكتاب والسنّة، الأمر بالإحسان والحضّ عليه، من ثمرات الإحسان، كثرة طرق الخير، الاقتصاد في الطاعة، المحافظة على الأعمال، ممّا يعين على العمل الصالح، من علامات القبول، جزاء العمل الصالح في الدنيا، جزاء الحسنات: الحسنى، جزاء

السيّئات: السوء، الحسنات يُذْهبنَ السيّئات، صفات الأجر على العمل الصالح، مضاعفة الأجر وأسبابها، من أفضل الأعمال، جزاء العمل الصالح في الآخرة، شهادة الأرض والأعضاء على الإنسان بعمله. . .

ثمّ يختم الكتاب بنداء ودعاء: نداء للمسلمين أن يتحقّقوا بالعبودية لله تعالى، فيبادروا إلى الأعمال الصالحة، ويغتنموا الأعمار، ويتزوّدوا بصالح الأعمال، وأن يكونوا دعاة إلى العمل الصالح، وقدوة صالحة للعاملين، ودعاء سليمان عليه السلام الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

١٣ - الرؤى والأحلام:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (١٧١).

ينطلق الشيخ في حديثه عن الرؤى والأحلام من نقطتين على درجة كبيرة من الأهميّة:

الأولى: أنَّ الرؤى من مظاهر عظمة الله تعالى وقدرته.

والثانية: أنَّها تقوّي إيمان المؤمن بالوحي الإلـٰهي، والإلهام الربّاني، الذي لا يملك الإنسان فيه مصادر ولا موارد، ولا يستطيع أن يقدّم أو يؤخّر، ولا يزيدَ ولا ينقصَ، بل كلّ ذلك بيد الله تعالى وحده. . .

ثمّ يقول: «إذا عرفتَ هذا عرفتَ لا محالة أنّ من هوس الهوى، وسفهِ العقلِ، وضلال الرأي ما جاء في كُتب علم النفس الحديث من تكذيبٍ للرؤى، وقلّة المبالاة بها.

ولما كانت معرفةُ الحقّ في ذلك ممّا يتأكّد على المسلم، أخرجت هذه الرسالة، مبيّناً فيها أنَّ من هدي الإسلام الاهتمام بالرؤى وتعبيرها، إذ لا تخلو من بشارة أو نذارة، في أمر دنيا أو دين.

بشارة تحفز الرائي إلى لزوم سبيل الاستقامة، والثبات على الحقّ،

والدعوة إليه، أو تهديه إلى ما فيه خيره وفلاحه، في أمر دينه أو دنياه.

أو نذارة تردعه عن الغفلة عن ربّه، والتفريط في جنبه، وتحمله على التوبةِ النصوح، وتبعثه على العمل الصالح، وتحذّره مما فيه الشرّ والخَسارُ، في أمر دين أو دنيا»[1].

ابتدأ الشيخ بتعريف الرؤيا، وبيان أنواعها، ثمّ بيّن أنَّ الرؤيا الصالحة جُزءٌ من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة، كما جاء في الحديث، وبيَّن معنى ذلك، ثمّ ذكر بعض الأحكام والحقائق عن الرؤيا، ثم عرض رؤى وردت في القرآن الكريم، ثم ذكر بعض مرائي النبيّ ﷺ، وما فيها من عِبَر وعِظات، ثمَّ ذكر بعض الرؤى التي رآها الصحابة رضي الله عنهم، وكيف عبّرها لهم النبيّ ﷺ، ثمّ تحدَّث عن رؤيا النبيِّ ﷺ في المنام، وما يعين المؤمن على رؤيته ﷺ، وبعض مرائي السلف للنبي ﷺ، ثمّ تحدّث عن رؤيا الله تعالى في المنام، وبيَّن أنَّها متّفق على جوازها بين العلماء، ودلّل على ذلك بما وقع للنبيّ ﷺ، كما في سنن الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، ثمّ ذكر كلام السلف في رؤيا الله تعالى في المنام، وبعض مرائي السلف في ذلك، ثمّ ختم الكتاب بالحديث عن الفزع في المنام وسبب ذلك، ثمّ ذكر سرّ بعض الأذكار النبويّة الشريفة في الحفظ من الفزع في النوم، وكيف جرّبها ببعض بناته، فأمنت وطرد عنها الشياطين بإذن الله، وكيف كتبها لبعض النساء اللواتي كنّ يفزعن في حملهنّ، ويسقط حملهنّ، فلم يعد يسقط حملهنّ بإذن الله.

١٤ ـ الهدى والضلال:

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (١١١).

الحديث عن الهدى والضلال يشبه الحديث عن الحقّ والباطل، ويشبه أن يكون الفرق بينهما أنَّ مصطلحي الحقّ والباطل فيهما تصوير لطبائع الأمور كما

---

(١) مقدّمة كتاب: (الرؤى والأحلام)، ص٥ ـ ٧.

هي في حقيقتهما، وانحياز الناس إلى هذا الجانب أو ذاك، وأنّ مصطلحي الهدى والضلال فيهما وصفٌ لحال الإنسان، وانعكاسات الحقّ أو الباطل في نفسه، والجانب الإلـٰهيّ في ذلك، الذي يتمثّل في توفيق الله للمهتدين، وزيادتهم هدًى، وخذلان الضالّين المنحرفين، وإمدادهم في الضلالة والغواية.

وقد بيّن الشيخ في مقدّمة هذه الرسالة سبب تأليفه لها فقال: «اهتدى المسلمون الأوّلون إلى ديْن الله، ودعوا إليه، وحملوا لواءه، فأنقذوا العالم، وأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الخلق إلى عبادة الخالق، وعاشوا ينعمون في ظلال العقيدة الإسلاميّة الصحيحة، وعبادات الإسلام الهادية، وعدالته الشاملة، وأخلاقه الرفيعة..

ولم يزالوا كذلك حتّى طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وتنكّبوا طريق الهدى، وسلكوا مسالِكَ الردى، وعادوا يتخبّطون في فيافي الأهواء، وضلال الآراء في حيرة وقلق، واضطراب وشقاء..

ولن يزالوا كذلك، حتى يثوبوا إلى الرشد، ويهتدوا إلى الصراط المستقيم، ومحجّة الإسلام البيضاء.. وإنّ العالم اليوم لينقصه جيل إسلاميّ بحقّ، يحمل لواء الحقّ، ويعمل بهدي الإسلام الحنيف، ويدعو إليه بالقَول والعمل.

من أجل هذا جمعتُ في هذه الرسالة ما يعرّف بالهدى، ويوضّح معالم الطريق إليه، ويرغّب فيه، ويحذّر من الضلال وسوء عاقبته، سائلاً الله تعالى أن يهدي بها العباد إلى سبيل رضاه، ويلهمهم الرشاد والهدى والسداد، إنّه سميع مجيب»[1].

١٥ ـ العشر المهلكات.

المقاس صغير (١٢×١٧)، وعدد الصفحات (٢٢٤).

وقد عدَّد هذه العشر في أوّل الرسالة، ثمّ تحدّث فيها عن الأولى والثانية

---

(١) انظر مقدّمة رسالة (الهدى والضلال).

فقط، وهي شره الطعام، وشره الوقاع، وقال في مقدّمتها: «فسعادة الإنسان: بالإيمان وطاعة الرحمن، وشقاء الإنسان: بالكفر والفسوق والعصيان».

وقد عدَّد العلماء المعاصي والمهلكات، ليحذرها الإنسان ويبتعد عنها.

وعدَّدوا الفضائل والمنجيات، ليتحلّى بها، ويُكثر منها.

فقالوا: من المهلكات: شره الطعام، وشره الوقاع، والحسد، والغضب، والبخل، وحبّ المال، وحبّ الجاه، والرياء، والكبر، والغضب.

وقالوا: منَ المنجيات: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والتوكّل على الله، والإخلاص في الأعمال، وحُسن الخُلق مع الخلق، وحبّ الله تعالى والخشوع له.

والإنسان كثير النسيان، يغفل عمّا يهلكه ويغويه، فيقاربه ويقع فيه، ويهوي في مهاويه.

ويغفل عمّا ينفعه وينجيه، فيتقاعس عنه، ولا يباليه، مع أنَّ النجاة به، والسلامة فيه.

من أجل ذلك عزمتُ بعون الله تعالى على إخراج رسائل في المهلكات، مبيّناً آفاتها، وفي المنجيات موضّحاً مسالكها، لينتفع بها القارئ إذا أراد الانتفاع، فيرهب ويرغب، ويعمل على السلامة والنجاة. والله تعالى وليّ التوفيق.

* * *

المبحث الثاني

ما لم يُنشَر من كتبه وآثاره

ما لم يُنشَر من كتب الشيخ أحمد وآثاره، يشمل: المخطوطات من كتبه، والكلمات التوجيهيّة، والخُطب، والدروس، والشعر، **وأعرّف بها فيما يلي**:

ـ أما المخطوطات من كتبه، فأذكر منها:

١ ـ **كتاب: (بلوغ الأمل شرح وصايا سبيل الهدى والعمل)**: وقد ألقى هذا الشرح خلال سنوات في دروسه العامّة، وكان يعزمُ على إخراجه في كتاب ونشره، ولكنّه لم يدرك من الأجل فسحة لذلك، وقد وصلتني مؤخّراً النسخة المخطوطة منه، عن طريق ولده فضيلة أخينا الشيخ الدكتور محمّد أبو الفتح، وتقع في أربعة دفاتر مدرسيّة كلّ واحد منها بحجم مئة صفحة أو يزيد، مكتوب على وجه واحد منها، بخطّ كبير، وفي شرح بعضِ الوصايا إضافات على أوراق خارجيّة، وفي كثير منها لم يفصّل في الشرح، وإنّما أشار إشارة موجزة إلى ما يريد الحديث عنه في الدرس، كقوله مثلاً: تذكر قصّة كعب ابن مالك رضي الله عنه.. قصّة عمر بن الخطاب وأويس رضي الله عنهما.. وقوله عن وصايا الصوم والحج تترك لحينها.. وبعض الوصايا لم يشرحه أصلاً..

٢ ـ **(مواطن العِبرَ في قصص القرآن الكريم)** أو: **(نفحات الرحمن في بيان مواطن العِبرَ في قصص القرآن)**: وهو ممّا ألقاه أيضاً في دروسه العامّة، وقد وصلني مؤخّراً النسخة المخطوطة منه، عن طريق ولده فضيلة أخينا الشيخ الدكتور محمد أبو الفتح، وتقع في دفتر مدرسيّ تزيد صفحاته عن مئتين، وهو مكتوب بخطّ كبير جميل، ومبنيّ على الاختصار أيضاً كسابقه.

٣ ـ **(من نداء القرآن الكريم)**: وهو ممّا ألقاه في دروسه العامّة أيضاً، وقد

وصلتني النسخة المخطوطة منه مؤخّراً، مع ما وصل عن طريق ولده فضيلة أخينا الشيخ الدكتور محمد أبو الفتح، وتقع في دفترين مدرسيّين، وهو مبنيّ على الاختصار في الشرح كسابقيه.

٤ ـ **(نسائيّـات)**: وهي أحاديث نبويّة مختارة لدرس النساء، ممّا يتحدّث عن حقوق النساء وواجباتهنّ، مع التعليق عليها بما يناسب.

وهـو ممّا ألقاه الشيخ في دروسـه النسـائيّة، وقد وصلتني النسـخة المخطوطة منه مؤخّراً مع ما وصل عن طريق ولده فضيلة أخينا الشيخ الدكتور محمد أبو الفتح، ويقع في (٤٠) ورقة مسوّدة، ويحتاج إلى ترتيب مناسب لإخراجها في كتاب، أسأل الله تعالى أن أوفّق إلى ذلك.

٥ ـ **(مراحل حياتي بقلمي)**: وقد وصلتني صورة النسخة المخطوطة منه، عن طريق ولده فضيلة أخينا الشيخ الدكتور محمد أبو الفتح، وتقع في (٤٠) ورقة مسوّدة. وقد كتبَ على غلافها: «بدأتُ بتسطيرها في يوم الجمعة ٨ من شوال ١٣٩٣هـ، في المسجد النبويّ الشريف».

وقد كتبه بناءً على طلب بعض الإخوة، كما يقول في المقدّمة: «فقد سألني بعض الشباب الصالح، أن أكتب عن مراحل حياتي صفحات، تكون لهم حافزاً إلى سلوك السبيل السويّ، الذي هداني الله إليه بمنّه وكرمه، وحسن عنايته ورعايته، فتريّثتُ أوّل الأمر، وخشيتُ أن يكون فيما أكتبُ شبه رضا عن نفسي، أو تلويح في الثناء عليها أو تصريح، فانصرفتُ معرضاً عن ذلك.

ثم لم يلبثـوا أن عادوا يلحّـون عليّ في الأمر، فاستخرتُ الله تعالى، وصحّحتُ النيّة، قاصداً بذلك وجهَ الله تعالى، متحدّثـاً بعظيم نعمتـه عليّ، وحسن عنايته بي، وكريم رعايته إيايّ، سائلاً الله تعالى أن يجعلها خالصـةً لوجهـه الكريم، وينفع بها المسلمين في كلّ عصر، ويأخذ بنواصيهم إلى ما يحبّ ويرضى، ويلحقني وإيّاهم بالصالحين، إنّه سميعٌ مجيب، وقد استفدتُ منه كثيراً في تحديد بعض التواريخ في حياته وضبطها.

٦ ـ **(مجموعـة العبادات على المذهب الشافعي)**: وهو كتاب على غرار كتابه: (مجموعة العبادات) على مذهب أبي حنيفة رحمه الله، ولكنه أوسع من مثيله، وأغنى بذكر الفروع الفقهيّة، والمسائل التي يكثر وقوعها، وقد أملى علينا قسماً منه في دروس عقدها للإخوة الشافعيين، حضرتُ فيها معهم والحمد لله، ولا أدري ما فعلتْ به الأيام.

٧ ـ **كتاب: (الآداب الإسلامية)**: وهو كتاب شامل، دهمه المرض، وهو يشتغل بتأليفه، وقد ألقى منه دروساً قبيل مرضه، ولا ندري أيضاً ما فعلت به الأيام.

٨ ـ **كتاب: (مختارات من كلام السلف)**: وهي تتناول شعَب الإيمان وأعمالَ القلوب، ويعدّ زبدة نافعة في التربية والتزكية، وقد أملى علينا قسماً منها في اللقاءات التي كان يعالج فيها شؤون إخوانه، وما يجدّ لهم من مشكلات، ولا ندري أيضاً ما فعلت به الأيام.

٩ ـ تتمّة سلسلة العشر المهلكات، فقد نشر اثنين منها في كتاب: **(العشر المهلكات)** المذكور آنفاً، ووعد بالحديث عن سائرها، ولم يتمكّن من إكمال ما كتب في ذلك، كما وعد بالحديث عن العشر المنجيات، ولكنّ المنيّة لم تمكّن من تحقيق الأمنية، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

١٠ ـ **(رسائل دعوية وتربوية في موضوعات متنوعة)**: كان يكتبها لتوجيه إخوانه في المخيّمات السنويّة التي كان يقيمها لهم، أو في مناسبات أخرى، ومنها الأمالي في جلسة الثلاثاء الأسبوعية بعنوان: (تذكير وتحذير)[١].

١١ ـ **وأما خطبه فكلّها مكتوبة**، وقد كانت آية في البلاغة، وقوّة البيان، وجدّة الأسلوب، وتنوّع الموضوعات، والمعالجة للمشكلات المعاصرة.

---

(١) وقد بنى الباحث عليها كتابه: (أساليب تربويّة، ومفاهيم دعويّة، من حياة الشيخ أحمد رحمه الله).

ولو أنّ خطبه جُمِعَت ورُتِّبَت لكان منها كتاب لا يقلّ عن أربعة مجلّدات، في الدعوة إلى الإسلام، والتعريف بمبادئه، والحثّ على فضائله وآدابه، وغرس الاعتزاز به في نفوس أبنائه، وقد وصلت إلى ولده فضيلة الشيخ الدكتور محمد أبي الفتح، ولعلّه يوفّق إلى نشرها، أو نشر ما تيسّر منها.

١٢ ـ وأما دروسه الأسبوعيّة، فكانت كلّها مسجّلة على أشرطة، ومحتفظ بها، ولا نعلم ما فعلت بها الأيام.

١٣ ـ ديوان شعره، وقد سمّاه: **(النزر الطفيف في نظم العبد الضعيف)** وقد كنت رأيته في حياته، ولم يُعثر عليه بعد وفاته، وإنّما عُثر على بعض الأوراق التي فيها بعض قصائده في المناسبات، وكأنّها مسوّدات ذلك الديوان، ولكنّ الديوان أوسع منها وأكبر.

* * *

المبحث الثالث

التعريف بشعره ومختارات منه

كان للشيخ أحمد شعر جزل عذب، أكثره في المديح النبويّ والشمائل المحمّديّة، والدعوة إلى الإسلام، وذكر محاسنه وفضائله، وقد نُشر جملةً صالحةً منه في كتاب (الحج والعمرة وأحكامهما)، وهو منشور أيضاً في ختام العبادات على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه.

يقول رحمه الله عن قصّته مع الشعر[1]: «عالجت الشعر في أوّل شبابي، فجاء متكلّفاً غير مرغوب، فتركته، ثمّ عالجته مرّة أخرى كذلك، وتركته.. فلمّا سرّحت من وظيفتي الخطابة والإمامة، جاءني الشعر عفواً سهلاً سلساً مستساغاً، وانقادت إليّ قوافيه.

وكان أوّل ما أرضاني منه أنّي كنتُ وأنا في شهر ربيع الأوّل في نشوة المولد النبويّ الشريف، أفكّر في عَظَمة الرسول ﷺ، وأنّ كلّ عَظَمة أخرى تتلاشى إلى جانبها.. فانطلق لساني بقولي:

أنا ما التفتُّ إلى عظيمٍ غيرَه   إلاّ وجدتُ الوَهْنَ في العظماتِ»

يقول الباحث: وأوّل هذه القصيدة قوله:

وَرَدَ الربيعُ بأطيبِ النسماتِ   وشدا الهزارُ بأعذبِ النغماتِ

ثمّ جاءت قبل هذا البيت أبيات، وبعده أبيات، وتتابع الشعر بالمناسبات، وأكثره في المحبّة النبويّة، وفي الحنين إلى الديار الحجازية، يتخلّل ذلك مواعظ وحكم.

---

(١) في كتابه غير المنشور: (مراحل حياتي بقلمي).

«وأنا لم أفرح بالشعر لأنّي قلت الشعر، أو ضارعتُ بشعري الشعراء، أو ألقيتُ بدلوي بين الدلاء.. بل فرحتُ به رجاء أن يلحقني الله بالمادحين المحبّين لرسول الله ﷺ، المتعلّقين بجنابه الرفيع، وفي ذلك شرفٌ لي وأيُّ شرف، وتقرُّبٌ إليه وزلفى».

* * *

نماذج من شعره غير المنشور

العمرة في رمضان

ودَّعْــتُ طيبــةَ لاعتمَــارٍ جــامعــاً ... بَيْـنَ الصِّيـامِ وبيـنَ مَنْسَـكِ مُعْتَمِـرْ
والقَلْــبُ رَاحَ مــودِّعــاً ومــؤمِّــلاً ... متنــازعَ الأهــواءِ دَمْعــي مُنْهَمِــرْ
هــذي بــلادُ اللهِ جنّــةُ أرضِــهِ ... بـالنُّورِ والنَّعمـاءِ قـاصـدُهـا غُمِـرْ
يــا ربِّ لا تجْعَلْــهُ آخــرَ عَهْــدِنــا ... مِـنْ قُـرْبهـا أنْـتَ المَليْـكُ المُقْتَـدِرْ
فــي طَيْبَــة وبمكّــة أُنْــسُ الفــؤا ... دِ وفرحَةُ القلبِ المشوقِ المُسْتَعِرْ
مَــنْ يبـغِ وَجْــهَ اللهِ يَحْــظَ بِقُــرْبِــهِ ... مَنْ كانَ يَرْجُوْ الأجْرَ والأُخْرَى أُجِرْ
أنـا لا أُفـارِقُ طَـائِعـاً أرْضَ الحِمَـى ... فــي عَــوْدَتــي لكنَّــهُ أَمْـرٌ قُـدِرْ
يا فَرْحَتي عِنْدَ التَّلاقي، ولَوْعتي ... عنْـدَ الفِـراقِ وويـحَ قَلْبِـي المُنْكَسِـرْ

* * *

أحبُّ الصالحين

بَــذَلْــتُ النُّصْــحَ أمنحُــهُ ثَمينــاً ... وبـذْلُ النُّصْـحِ مـا أَحْلَـى سَمَـاعَـهْ
تجنّــدْ يــا أخــي للحــقِّ واصبِــرْ ... فقــدْ كشــفَ العــدوُّ لنــا قنــاعَــهْ
ولا تغــرُرْكَ دنيــا فهــي حلــمٌ ... سيَمضـي، فـالْـزَمَـنْ فيهـا القَنَـاعَـهْ
فمَــنْ لــم يــرعَ حــقَّ اللهِ فيهــا ... وعــاشَ مغفّــلاً غِــرّاً أضــاعَــهْ
وكـم قَـدْ ضـاعَ ديـنُ النـاسِ لكـن ... محـبُّ الـدِّيـنِ لا يـرضَـى ضيـاعَـهْ

فـلا تُغْفِـلْ نفيـسَ العُمْـرِ واعمَـلْ   لأُخــرَى إنَّمــا دُنيــاكَ ســاعَــهْ
وكُـنْ يَقظـانَ لا يخـدعْـكَ خِـبٌّ   وهَــدِّمْ مَكْــرَهُ واحــذَرْ خِـدَاعَــهْ
وصَيِّـر وصـفَ شـأنـك فـي البـرايـا   قبــولَ الحــقِّ دومــاً واتّبــاعَــهْ
وهــذِّبْ نفسَــكَ الحيــرى بشــرع   ورَبِّ النَّفْــسَ واصْنَعْهــا صنــاعَــهْ
وبــاطــلُ كــلّ إنســانٍ هــواهُ   فــروّضْهــا وعــوّدْهــا صــراعَــهْ
وإنَّ الحــقَّ عــالٍ لا يمــارَى   ووجْـهُ الحـقِّ أبلـجُ فـي نصـاعَـهْ
وودِّع عمــرَك الغــالــي بخيــرٍ   وأحسِـنْ في رضـا المـولى ودَاعَـهْ
فنِعــمَ بِضــاعــةُ الأخيــارِ تقــوى   وبئـسَ بِضـاعـةُ الحَمْقَـى خـلاعَـهْ

* * *

المبحث الرابع

نماذج من وصاياه

الناظر في حياة الشيخ التربويّة والدعويّة يجد لوناً شرعياً من أساليب الدعوة والتربية، يغفل عنه كثير من الدعاة والمربّين، هو اعتناؤه رحمه الله بتقديم الوصيّة بين الحين والآخر، لأسرته وأولاده، وإخوانه وتلامذته ومحبّيه، وإنَّ «للوصيّة موقعاً في النفس، خاصّةً، عندما تكون ممّن له مكانة كريمة، ومنزلة معظّمة، كالوالد والمعلّم والمربّي، وقد كانت أسلوباً واضحاً في كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ، وهي من سنن الله في الماضين، فقد وصّى الله عباده الأوّلين والآخرين بتقواه، فقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء: ١٣١]. وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ ﴾ [العنكبوت: ٨]. وقال سبحانه: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]. وقال سبحانه: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ ﴾ [النساء: ١١]. وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد جاء من وصايا النبي ﷺ لأصحابه وأمّته الشيء الكثير، الذي لا يخفى على أيّ مطّلع على كتب السنّة الشريفة، منها ما كان عامّاً، ومنها ما كان خاصّاً ببعض أفراد أمّته ولكن يراد به العموم.

ولم تزل الوصيةُ بالخير والتقوى في هذه الأمّة، دأب الصالحين والكبار،

والآباء والمربّين، يطلبها الناسُ، وتبذل لهم بغير طلب، حرصاً على نصح الأمّة وإرشادها إلى ما يسعدها، وينير سبيلها.

ولقد أخذ الشيخ رحمه الله بهذا المنهج في حياته التربويّة والدعويّة، فكان في كلّ مناسبة يتقدّم لأولاده وإخوانه بوصاياه وتوجيهاته، مكتوبة محدّدة، ويدعوهم إلى الأخذ بها، والحرص على تنفيذها. . فكان في كلّ سفرة من أسفاره إلى الحجّ يكتب لأولاده وصيّة توجيهيّة تربويّة، ووصيّة أخرى إلى إخوانه وتلامذته ومحبّيه، وكان من وصاياه ما يقدّمه لأبنائه الطلاّب في مطلع كلّ عام دراسيّ. .

وكانت وصاياه حسنة العبارة، جميلة البيان، تصلح أن يقال فيها: جامعة مانعة، ولو جُمِعَتْ في كتاب لكانت صورةً رفيعةً من صور الأدب العربيّ، التي تجمّل صدر لغتنا الحبيبة، وتعتزّ بها. .

ونتقدّم في الختام بنموذج من وصايا الشيخ رحمه الله:

وصية

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين.

وبعد: فيقول العبد الفقير إلى مولاه، الغنيّ عمّا سواه: أحمد بن عيسى البيانوني: لمّا سمعتُ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله جلّ شأنه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولما سمعتُ قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]. لمّا

سمعتُ هذا وأيقنتُ أنَّ الدنيا دار ممرّ، لا دارَ مقرّ، وأنَّ اللهَ جلَّت حكمته، خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوكم أيّكم أحسنُ عملاً، أحببتُ أن أُوصي أهلي وأولادي، وذرّيتي من بعدي، وإخواني وأصحابي، وجميع المسلمين ـ كما أوصي نفسي ـ بتقوى الله عزَّ وجلّ، وعقد القلب على الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرّه.

وأوصيهم بالعمل بأركان الإسلام، وهي شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً.

وأوصيهم بمجاهدة النفس على العمل بالإحسان، وهو أن تعبدَ اللهَ كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك.

وأوصيهم بالاستعداد للجهاد في سبيل الله، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله ﷺ: «**مَنْ ماتَ ولم يَغزُ، ولم يحدِّث نفسَه بالغزو ماتَ على شُعبةٍ من النفاق**».

وأوصيهم بالإقبال على تلاوة القرآن، وتدبّر معانيه، والعمل بما فيه، وطلب العلم الشرعيّ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الملائكةَ لتضع أجنحَتها لطالب العلم رضا بما يصنع**».

وأوصيهم بالتقرّب إلى الله تعالى بالفرائض، ثمّ التحبّب إليه بالنوافل، عملاً بقوله تعالى في الحديث القدسيّ: «**.. وما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضتُه عليه، وما يزال يتقرَّب إليّ عبدي بالنوافل حتّى أحبّه..**».

وأوصيهم بكمال التمسّك بالشرع الإسلاميّ الحنيف، وعدم قياس أمور الدين بالعقل، فللعقل حدّ ينتهي إليه، كما للبصر حدّ ينتهي إليه.

وأوصيهم بإحلال الحلال، وتحريم الحرام، واجتناب الشُّبَه، واتّباع السنّة، واجتناب البدعة، والثبات على ذلك، ولو لاقوا في سبيل ذلك المشقّات،

أو نُشروا بالمناشير، ففي الحديث: «إنَّ من ورائكم أيّام الصبر، الصبرُ فيهنّ مثل القبض على الجمر، للعامل فيهنّ مثل أجر خمسين يعملون مثل عمله» قيل: يا رسول الله! أجر خمسين رجلاً منّا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم».

وأوصيهم أن يدعوا الناس إلى التمسّك بالدين، والاعتصام بحبله المتين، والتشبّث بالكتاب والسنّة قولاً وعملاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصّلت: ٣٣].

وأوصيهم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وألاّ تأخذهم في الله لومةَ لائم.

وأوصيهم أن يزهدوا بالدنيا وأهلها، ويرغبوا بالآخرة والعمل لها، وأن يتّقوا الله، ويكونوا مع الصادقين، وأن يحبّوا في الله، ويبغضوا في الله، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال ﷺ: «مِنْ أوثقِ عُرا الإيمان الحبُّ في الله، والبغضُ في الله».

وأوصيهم بحُسن العقيدة بالصوفية، وبأنّهم صفوة هذه الأمة، وبتأويل المشتبه من كلامهم، أو تفويض علم ذلك إلى الله تعالى.

وأوصيهم أن يعلموا أنَّ طريقتنا هذه مبنيّةٌ على الكتاب والسنّة، وما خالف الكتاب والسنّة فهو ردٌّ، وأنَّ التصوّف لا تكفي فيه النسبة، ولا يورَثُ عن الأب والجدّ، بل لا بدّ فيه من العمل بعمل السلف الصالح، والتخلّق بأخلاقهم.

وأوصيهم بدوام الطهارة، ودوام ذكر الله تعالى، ولاسيّما ذكر القلب، وبحضور الجمعة والجماعات، وبالاجتماع على الطاعات، والتعاون على

المبرّات، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

وأوصيهم بأن يحبُّوا للناس ما يحبُّون لأنفسهم، ويكرهوا لهم ما يكرهون لأنفسهم.

وأوصيهم وأوصي نساءهم بالقرار في البيوت، وألاّ يُبدينَ زينتهنّ، وأن يحتجبن من غير المحارم الحجاب الكامل، عملاً بتحذير النبيّ ﷺ في قوله: **«إيّاكم والدخولَ على النساء. .»**، وقوله ﷺ: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساءِ»**.

وأوصيهم ألاّ ينحرفوا مع الزمن وأهله، عملاً بقوله ﷺ: **«لا يكن أحدُكم إمّعةً: يقول: أنا مع الناس، إنْ أحسنَ الناسُ أحسنتُ، وإن أساؤوا أسأتُ، ولكنْ وطِّنوا أنفسَكم، إنْ أحسنَ الناسُ أنْ تُحْسِنوا، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم»**.

وأوصيهم بتجديد التوبة إلى الله تعالى دائماً، فإنَّ اللهَ يحبُّ التوَّابين، ويحبُّ المتطهّرين، وفي الحديث الشريف: **«إنَّ اللهَ يبسطُ يدَه بالليلِ ليتوبَ مسيءُ النهار، ويبسطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مُسيءُ الليل»**.

وأوصيهم بالإكثار من الاستغفار، ولا سيّما في الأسحار، وأن يكونوا من المتّقين المحسنين، الذين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم.

وأوصيهم بالإخلاص لله تعالى في الأقوال والأفعال، ليكونوا من أحباب الله، فقد روي عن الله تعالى في الحديث القدسي: **«الإخلاصُ سرٌّ من سرِّي، استودعتُه قلبَ مَن أحببتُ من عبادي»**، وليكونَ عملُهم مقبولاً، قال ﷺ: **«إنَّ اللهَ لا يقبلُ من العملِ إلاّ ما كان له خالصاً، وابتُغِيَ به وجهه»**.

وأوصيهم أن يتولّهوا بمحبّة النبي ﷺ، ومحبّة أهل بيته، وعلامة ذلك اتّباعه ﷺ، وإحياء سنّته، والبذل في مرضاته، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ

﴿تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[آل عمران: ٣١]، وقال ﷺ: «مَنْ أحيا سنّتي عند فسادِ أمّتي كانَ له أجرُ مئةِ شهيدٍ».

وأوصيهم أن يأمروا بجميع ذلك أهليهم وأبناءهم وذرّياتهم، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله ﷺ: «كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيّته...».

وأوصيهم أن يدعوا لي بخير، ليكونَ لي بدعائهم عملٌ دائمٌ، قال رسول الله ﷺ: «إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلاّ من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، وعلمٍ يُنتفَعُ به، وولدٍ صالحٍ يدعو له».

وأن يدعوا للمسلمين أن يولّي عليهم خيارَهم، ولا يولّي عليهم شرارهم، وأن يقوّيَ شوكتَهم، ويعزَّ شأنهم، ويؤيّدَهم بنصرٍ من عنده.

وأوصيهم أن يطبعوا هذه الوصيّة، وينشروها على الناس، ليعمَّ بها النفعُ إن شاء الله، وأكسب بها دعوة صالحة.

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم. والحمد لله رب العالمين.

كتبه بقلمه في ١٦ من ذي القعدة ١٣٧١هـ

الفقير إليه تعالى

أحمد عزّ الدين البيانونيّ

* * *

الخاتمة

إنَّ مهمّة علماءِ الأمّة ودعاةِ الحقّ في كلِّ جيل، ورسالتهم في كلّ زمنٍ أن يُربّوا الناس بالإسلام، وأن يربطوا بين أجيال الأمّة المتلاحقة، في حياتهم النظريّة والعمليّة، وبين الإسلام عقيدةً ومنهجاً، وأخلاقاً وسلوكاً، وعبوديّة، خالصة لله رب العالمين.

وإذا كان كمال المربّي ونجاحه في عمله يتجلّى في:

١ ـ نقل عقل الإنسان ونفسه وروحه من حالة دنيا إلى حالة أعلى، وكلّما ترقّى بالإنسان وسما به أكثر دلَّ ذلك على كماله ورفعة عمله.

٢ ـ ويتجلّى أيضاً نجاح المربّي في سعة دائرة الناس الذين استطاع أن ينقلهم إلى الكمال الإنساني، فكلّما كانت الدائرة أوسع وأشمل كان ذلك أدلّ على كمال المربّي ونجاحه في عمله.

٣ ـ كما يتجلّى نجاحُ المربّي في عمله: في صلاح هـذا المنهج وهـذه التربية، وحاجة الناس جميعاً إليها، واستمرار إيتاء هذه التعاليم آثارها على مدّة من الزمن أطول وأشمل.

وكلّ ذلك مما تحقّق في حياة النبيّ ﷺ على أكمل وجه، وامتازت به شخصيّة النبي ﷺ، في تأثيره العجيب في القلوب، وتغييره للنفوس، وقد شهد له بذلك القريب والبعيد، واعترف به العدوّ قبل الصديق..

وعلى قدر ما يكون الدعاة الربّانيون، والأئمّة المهديّون على قدم الاتّباع لمنهج النبيّ ﷺ في التربيـة وهديـه؛ يتحقق لهم النجاح في أعمالهم، وتبقى آثارهم من بعدهم، وتنتفع الأمّة بها، ويُكتَب لها القَبول بين الناس..

وقد رأينا من خلال هذه الدراسة: كيف أنَّ شخصيّة الشيخ رحمه الله قد تجلَّت في منهجه الدعويّ والتربويّ، ثمّ تجلَّت بقوّة في كتاباته، التي لم يدفعه إلى تسطيرها ومعالجة موضوعاتها إلاّ الشعور بحاجة الأمّة الملحّة لها، والاجتهاد في نصحها وتذكيرها. .

وإذا كانت الحياةُ تموجُ بالحركةِ الفكريّة والعمليّة، وهي متجدّدة متطوّرة، فإنَّ جزءاً لا يتجزّأ من مهمّة العلماء والدعاة إلى الله تعالى والمربّين أن يوائموا بين حركة الحياة المتجدّدة المتطوّرة وبين منهج الإسلام وهديه، ولن يتأتّى لهم ذلك إلاّ بالتجديد في أساليب الدعوة ووسائلها، وفي عرض مبادئ الإسلام وقيَمه، وإعادة صياغة التراث الفكريّ والفقهيّ ليلبّي حاجات الناس واهتماماتهم، ويسدّ الفجوة النفسيّة والفراغَ الفكريّ بين جيل وآخر. .

وبعد؛ فإنَّ ما وفّق الله تبارك وتعالى من كتابة سيرة هذا العلم الربّانيّ، من أعلام الدعوة والتربية في بلاد الشام حول سيرته الشخصيّة، ومؤلّفاته وآثاره.

حقّاً لقد سعدتُ بصحبته في حياته. . ولا أدلَّ على هذه السعادة من أنني لا أزالُ أعيشُ في بحبوحتها الغامرة إلى يومي هذا. . ولا أزال أترنّم بذكرياتها العبقة، وقد مضى عليها ما يزيد عن ثلاثين عاماً. .

ثمّ سُعدتُ بصحبته يومَ جلستُ أكتبُ عنه، فتجدّدت في نفسي ذكرياتٌ عزيزة تعبق بالروحانيّة الفيّاضة، وتجسّدت أمام ناظريّ حياة مليئة بالصدق والإخلاص، والجدّ والعطاء. .

وإنني لأنظر إلى تلك المدّة التي قضيتها في صحبته فأجدها في نظر كثير من الناس مدّة ليست بطويلة ـ تسع سنين ـ ولكنني أنظرُ إلى عطائها وتأثيرها فلا أكاد أصدّق صحّة حسابي لها. . فأعيد التفكير في عددها لأجدها مرّة أخرى تسع سنين. . كانت مترعةً في مواقفها، ثريّةً في عطائها. .

وإذا كانت قيمةُ الزمن تحدّدها قيمة الأحداث والمواقف التي تقع فيه،

فحقٌّ لي بهذا المقياس أن أعدّ صحبتي لهذا الرجل تتجاوز العدد المحدود من السنوات بكثير. . فأنا لا زلتُ ـ غيرَ مبالغ ولا متزيّد ـ أعيشُ بصماتِ تلك السنوات كلَّ يومٍ يمرّ بي في الحياة. . وأجدُ مصداق ذلك الفكر، الذي تألّقت فيه تلك الشخصيّة في شتّى أحداث الحياة من حولي. . فلا أجدُ عزاءً عن عجزي عن تقديم الشكر، والاعتراف بعظيم الفضل، إلاّ أن أستمطرَ شآبيب الرحمة من الرحمن الرحيم، على الجدث المتواضع، الثاوي في رُبا مقبرة الأعرابي لذلك الرجل العظيم، وأسأل الله تعالى أن يرفعَ صاحبه عنده في علّيين، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

وإنّي إذ أتأمّلُ شيئاً من الخيرِ وفّقني الله إليه أجدُ بصمات ذلك الرجل العظيم فيه تقف شاهد صدقٍ على أنَّ التلميذ وعمله إن هما إلاّ جزءٌ من عمل الشيخ وامتدادٌ لسعيه. .

وعندما تتجدَّد في النفس مشاعر الحزن بفراق أمثال هذا الرجل العظيم لا يجد المرءُ عزاءً عن ذلك سوى الطمع برحمة الله تعالى التي انتقلوا إليها، وأنَّ هذه الدار ليست بدار قرار ولا جزاء، وأنَّ الآخرة خيرٌ من الأولى. . وأنَّ الرجاءَ بعظيمِ فضلِ اللهِ تعالى، وحُسنِ الظنِّ به أن يجمعنا بهم في بحبوحة جنّته، ومستقرّ رحمته. .

وإذا سعدتَ أخي القارئ الكريم بصحبةِ الشيخ في سيرتِه، ومع مؤلّفاته، فلا تنسَ أن تخصّه بدعواتك الصالحة، كما تخصّ كاتبَ هذه السطور، ولك مثلُ ذلك، ولك من مودّة القلب، وصادق الحبّ، ما يكون كفاء دعواتك أو يزيد، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتحابّين فيه، وأن يظلّنا في ظلِّ عرشه، يوم لا ظِلَّ إلاّ ظلُّه.

اللهمَّ اجعلنا هُداة مُهتَدينَ، غَيرَ ضالّين ولا مُضلّين، سِلْماً لأوليائِكَ حَرباً على أعدائِكَ، نُحِبُّ بحُبِّكَ مَن أحبَّك، ونُعادي بِعَداوتِكَ مَنْ خَالَفَك.

ونسأَلُكَ اللهمَّ حُبَّكَ، وحُبَّ مَن يحبُّكَ، وحُبَّ عَملٍ يُقرِّبُنا إلى حُبِّكَ،

واجعلْ خَيْرَ عُمُرِنا آخرَه، وخَيرَ عمَلِنا خَواتِمَه، وخَيرَ أيّامِنا يومَ نَلقَاكَ وأنتَ راضٍ عنّا.

وصلِّ اللهمَّ على عبدك ونبيّك محمد، النبيّ الأميّ الزكيّ، وعلى آله وصحبه وسلِّم، وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

* * *

الفهرس

الفصل الثاني
تعريف بمؤلفاته

* * *

صدر للمؤلِّف

١ ـ ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربويّة وآثاره.

٢ ـ وجوب وحدة المسلمين.

٣ ـ رسالة المعلّم وآداب العالم والمتعلّم.

٤ ـ اعرف نبيّك محمداً ﷺ يا بُني!

٥ ـ ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ.

٦ ـ البيّنات في تفسير سورة الحجرات.

٧ ـ المنهج القويم للداعية الحكيم.

٨ ـ مشاهد الأتقياء في الصبر على الابتلاء.

٩ ـ رسالتان في التربية.

١٠ ـ قصص وعِبَر من لطائف القَدَر. المجموعة الأولى.

١١ ـ قصص وعِبَر من عجائب القَدَر. المجموعة الثانية.

١٢ ـ حديث القلب.

١٣ ـ النصائح الذهبيّة لتربية الأولاد ورعايتهم.

١٤ ـ قبسات من نور النبوّة لصاحبي الفضيلة: الشيخ أحمد عزّ الدين البيانونيّ، والشيخ عبد الفتاح أبو غدّة رحمهما الله تعالى. بعناية د. عبد المجيد البيانوني، وفي ختامه رسالة: (ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ).

١٥ ـ تذكرة العابد بحقوق المساجد.

١٦ ـ أساليب تربويّة ومفاهيم دعويّة من حياة الشيخ أحمد عزّ الدين البيانونيّ.

١٧ ـ ركائز دعويّة من هدي النبيّ ﷺ في العلاقات الاجتماعيّة.

١٨ ـ نجاوى واستغفارات.

١٩ ـ تفسير سورة (يس).

* * *